مركز موسكو (1924 ـ 1931)

بين جميع التنويعات، التي يجب تحقيقها في مكان العمل، تعتبر تلك الخاصة بالتسلح أكثرها أهمية. يرجع ذلك كون المعنى الأكثر سرية للنمط ووسائله موجه نحو السيطرة.

إيرنست يونجر، العامل

تقع مدينة ليبشك الإقليمية الروسية على المجرى الأدنى لنهر فورونيش، على مسافة قصيرة من مصبه في الدون، وتبعد أربعمائة كيلومتر إلى الجنوب الشرقي من موسكو. كان زوار المدينة الألمان يشعرون بين فينة وأخرى في بعض أشهر صيف العشرينات المتأخرة الحارة، أنهم انتقلوا إلى طلاوة صيف ما قبل الثورة، وهو انطباع تقاسمه أيضا زوارها في نهاية القرن العشرين. غير أن من أتوا من جمهورية فايمار إلى ليبشيك لم يكونوا مصطافين، بل كانوا ضباطا في جيش الرايش، أمروا بالذهاب إلى الموقع الروسي الصغير كي يتدربوا على الحرب الجوية في مساحات روسيا اللانهائية.

طائرات، دبابات، أسلحة كيماوية

كانت قاعدة الطيارين الألمان تقع فوق مسطح مرتفع خارج المدينة، وتضم فضلا عن مهبطين قاعات حديثة للطائرات، ومرافق حوض جاف،

obeikandl.com

ومنشآت تصنيع وإصلاح، ومباني إدارة وسكن، كثيرا ما فاجأ وجودها المفتشين القادمين من برلين، الذين كانوا يعلنون من حين لآخر دهشتهم حول المشفى الحديث التجهيز، وتجهيزات البرق والهاتف، وتمديدات الخطوط الحديدية ومبنى الكازينو، بل أن بعض ترف المكان بدا للزوار البروسيين المتزمتين شيئا يتجاوز ما هو ضروري بكثير[1].

استأنفت مدرسة الطيارين المقاتلين السرية التابعة لجيش الرايش، عملها في ليبشك خلال شهر كانون الأول عام 1926، في أعقاب استعدادات طويلة. لكنها لم تبق مرفق جيش الرايش السري الوحيد في روسيا السوفييتية، إذ نشأت مطلع عام 1928 في كاما من أعمال الفولغا الأوسط، على الطرف الجنوبي الشرقي لمدينة قازان التترية القديمة، قاعات طائرات، ومواقع تصنيع وصيانة، ومساكن ضباط وجنود، وكازينو ومبنى أركان. ولم تتم هنا تجربة «تراكتورات ضخمة» مخصصة للزراعة الروسية، كما قالت الأكذوبة الرسمية المعلنة.

تلقى قادة ومدربو سلاح المدرعات الألماني المقبل تدريبهم في السهب قرب قازان، وجرت تجارب على نماذج من دبابات جيش الرايش. هنا، تدربت مجموعة تم انتقاؤها بعناية ضمت عددا قليلا من الضباط الشبان، على حرب الحركة التي كان مقدرا أن تخوضها الوحدات المدرعة. وقد أرسل جيش الرايش عام 1928 ضابطا شابا اسمه هانس جودريان إلى كاما، درس بدقة شروط التدريب والاختبار القائمة هناك، وقدم مقترحات حول تحسينها. وكما هو الحال في ليبشك، حدثت التدريبات والاختبارات في كاما تحت أعين السوفييت المدققة، لا سيما وأن نقل المعرفة إلى الجيش الأحمر كان واحدة من الخدمات التي تلقاها مقابل سماحه بمراكز التدريب

1. انظر تقرير أحد المشاركين في التدريب: هيلم شبايدل، جيش الرايش والجيش الأحمر، في: دفاتر فصلية للتاريخ المعاصر، الجزء الأول (1953) ص 9 ـ 45 .

الألمانية. وقد واجه الجانبان النتائج القاتلة لشراكتهما، عندما تلاقت جيوش جودريان المدرعة وهي في طريقها إلى الشرق خلال صيف وخريف عام 1941 مع وحدات الدبابات السوفييتية.

كانت مخابر فولسك، المدينة الصغيرة الواقعة على بعد مائة كيلومتر إلى الشمال من ساراتوف على الفولغا، أكثر سرية من منشآت ليبشك وقازان. هنا، ضمت أماكن نوم الألمان في صيف عام 1926 فضلا عن ضباط كيميائيين، وأطباء، وبيولوجيين، وعلماء أرصاد جوية، بدؤوا نشاطهم العلمي الشديد السرية في وحشة المقاطعة الروسية، وجربوا عناصرهم في المخبر أول الأمر ثم نثروا الكيماويات المجربة في الهواء، قبل أن يقوموا بتجارب جوية بواسطة الطائرات.

كان المناخ القاري القاسي في موقع التجارب، مع ما امتاز به من تذبذبات حرارية شديدة التقلب حسب تغير الفصول، ملائما بصورة خاصة لعمل الألمان، الذين كان باستطاعتهم تجريب مواد الحرب الكيماوية في شروط استخدامها المختلفة. وقد تم بالفعل إجراء تجارب على الغازات السامة (العصيات الصفراء) والفوسجين (العصيات الخضراء) ومواد قتال مصنعه من الكلور. وتم التأكد من فاعلية أسلحة الدمار الشامل البيولوجية والسمية خلال تجارب على الحيوانات. عندما عاد رئيس مكتب القوات، اللواء فيرنو فون بلومبرج، من رحلة تفتيشية عبر الاتحاد السوفياتي قام بها صيف عام 1928، أكد بسعادة: «إن المشاريع الثلاثة في أفضل حال، وتعمل بطريقة ممتازة. أما قيمتها العظيمة بالنسبة إلى تسليحنا، فهي مؤكدة لا شك فيها، واستغلال طاقتها الكاملة هو من منظور تسليحنا ذو أهمية حياتية بالنسبة لنا». وقد تم توسيع المحطات بطريقة مكنت مئات الضباط والمهندسين الألمان من تلقي تدريبهم وتأهيلهم فيها خلال الصيف.

لم يكتف الجيش الألماني بتجريب الطائرات والدبابات والأسلحة

الكيماوية في روسيا، بل اهتم وزير جيش الرايش شخصيا بتحسين جاهزية وأهلية السكك الحديدية الروسية، لأنه كان لألمانيا مصلحة في رفع قدرة روسيا السوفييتية على التعبئة العامة، إذ بقدر ما تستطيع القوات السوفييتية الانتقال بسرعة أكبر إلى الغرب، بقدر ما يكون ضغطها السياسي على بولونيا أشد. وقد أبلغ وزير الجيش فيلهلم جورنر، الذي كان مسؤولا خلال الحرب العالمية الأولى عن النقل بالقطارات لصالح الجيش الألماني، وزير مواصلات الرايش في العاشر من تشرين الثاني عام 1928 أن «من المرغوب فيه أن يعرف مهندسو السكك الحديدية الروسية الورش رفيعة التطور التابعة للسكك الحديدية الألمانية».

لم يعرف أحد أحسن من جورنر كم كان مهما في حالة التعبئة أن يحشد الجيش الأحمر ضد بولونيا وفق مخطط أعد بعناية، يستند على شبكة الخطوط الحديدية الروسية. أما قلق وزير المواصلات من قيام الزوار الروس ببلشفة عمال السكك الحديدية الألمان، فاعتبره وزير جيش الرايش غير مبرر، ووعد أن يأخذ من مفوضية الشعب السوفييتية للمواصلات تعهدا بامتناع مهندسي السكك الحديدية الروس عن تحريض زملائهم الألمان، وأشار إلى خبرات إيجابية في هذا المجال، امتنع خلالها قادة الجيش الأحمر عن القيام بأي نشاط سياسي أو دعائي، حين كانوا يزورون جيش الرايش. .

كان «مركز موسكو» الألماني موقع الوصل والفصل في كل ما يتعلق بالتعاون السري بين الجيش الأحمر وجيش الرايش. وكان مكانه في أربات، حي الأرستقراطيين الراقي السابق إلى الغرب من الكرملين، حيث كان سادة يرتدون ملابس مدنية يهتمون بعمليات نقل العتاد المتنوعة، التي كانت تتم بين ألمانيا وروسيا السوفياتية، ويتفاوضون مع جهات حكومية روسية، ويشرفون على الألمان والمرافق العسكرية الألمانية في البلاد، وعلى الضيوف القادمين من ألمانيا والاتصالات البريدية الدورية مع برلين والمالية الخاصة بالوجود الألماني العسكري. كان «مركز موسكو» بعثة عسكرية صغيرة

حقيقية، عملت سرا واهتمت بأعمال التمويه والعزلة عن الخارج. وبالنظر إلى حجم التعاون العسكري / السياسي وعدد المشاركين فيه، كانت السرية الكاملة ضربا من الاستحالة، لا سيما وأن أجهزة الاستخبارات الغربية، ووكالات استخبارات إيطاليا وتشيخيا وبولونيا، كانت تتابع التعاون السري السوفييتي / الألماني. في ظروف كهذه، كان من الضروري حجب التفاصيل قدر الإمكان، مثلما كان على حكومة الرايش إقامة أوضاع تمكنها من نفي تقديم أي دعم رسمي للتنسيق العسكري السري بطريقة مقنعة.

كان أوسكار نيدرماير أكثر الأشخاص أهمية في «مركز موسكو» بين عامي 1924 و 1931. وهناك صورة التقطت عشية عيد الميلاد عام 1928 تظهره في وضعه المحبب: رجلا واثقا من نفسه يحيط به مساعدوه، ومع أنه لم يكن آنذاك رئيس المشروع، فإنه لم تكن هناك شكوك لدى العارفين بخفايا الأمور حول هوية الرأس السياسي والقوة الدافعة لـ«مركز موسكو» ورجل ثقة سيكت وشريك القيادة السوفييتية في المفاوضات. ومع أن العقيد هيرمان فون دير ليث ـ تومسون، رئيس نيدرماير الرسمي بين عامي 1924 و1928 في موسكو والخبير المرموق في الطيران والضابط من المدرسة القديمة، كان حريصا على التقيد بالتراتب الوظيفي في «مركز موسكو»، فإنه كان يعلم، مثلما كان يعلم السفير جراف بروكدورف ـ رانتساو أن لدى نيدرماير، رجل المركز الثاني، شبكة صلات متشابكة في برلين وموسكو أوسع بكثير من تلك المتاحة لأي منهما، بينها علاقاته مع[2] شعبة الجاسوسية التي بناها تروتسكي في الجيش الأحمر، التي قيض لها أن تعرف لاحقا تحت اسم «إدارة المخابرات العامة».

لم ينشط نيدرماير في موسكو بصفته عضوا ينتمي إلى مؤامرة ضباط راديكالية، بل عمل بتكليف من وزارة جيش الرايش، مع أنه كان من الناحية

2. الكساندر. نيكريش: منبوذون، شركاء، مفترسون. مرجع سابق، ص 14.

الرسمية رائدا متقاعدا، وتصرف بمعرفة وتغاضي حكومة الرايش، بعد أن توسع التعاون السري بين ألمانيا والاتحاد السوفياتي خلال فترة وجوده في موسكو واكتسب طابعا منهجيا، بينما توقفت أعمال المغامرة كتهريب أنور باشا إلى روسيا أو مشاريع التنسيق المشبوهة مع الاقتصاد الخاص، وحل محلها تعاون عسكري / تقني متوازن، أدى إلى توسيع جيش الكوادر الذي فكر به سيكت، وتحويله بسرعة إلى جيش كبير العدد في فترة لاحقة. وضعت في ليبشك وقازان شروط البناء السريع للجيش الألماني بعد 1933، ففيهما تدرب المدربون والقادة المقبلون لوحدات ألمانيا المدرعة وسلاحها الجوي.

كتب عام 1953 ضابط في سلاح جو ألماني كان قد تدرب في روسيا ما يلي: «كانت سياسة سيكت العسكرية غير قابلة للتنفيذ إلا في ظل أعظم قدر ممكن من السرية، وذلك لأسباب سياسية داخلية وخارجية»[3]. وكان التنسيق العسكري مع روسيا السوفييتية من أسرار الدولة والحكومة، وإن عرفها الساسة القياديون في جمهورية فايمار: «لا مجال للشك في أن المستشار ووزيرا الجيش والخارجية كانوا مطلعين في العقد السابق لعام 1933 على الجانب العسكري من السياسة الألمانية تجاه روسيا. كما حظي تمويلها السري بدعم واسع من جميع الجهات التي كانت تعرف ما يجري». والحال، لقد تم إعلام جميع رؤساء الرايش ومستشاريه ووزراء جيشه وخارجيته، وكذلك دائرة منتقاة من نواب برلماناته بالسمات العامة للتعاون السري بين جيش الرايش والجيش الأحمر.

كان المشاركون يعرفون جميعهم حق المعرفة المعنى السياسي للتعاون العسكري السري. لحجب التهرب الخفي من معاهدة فرساي، تأسست في برلين يوم 9 آب 1923 «جمعية دعم المشاريع الحرفية»، التي مرت عبرها

3. هيلم شبايدل: جيش الرايش والجيش الأحمر. ص 16.

جوانب التنسيق السري التقنية والمالية جميعها، وجعلت بمستطاع حكومة الرايش القاء اللوم في انتهاك المعاهدة على رجال أعمال متعطشين إلى جني الأرباح. وقد أُعطيت الجمعية شكل شركة مساهمة محدودة يقودها رجال وهميون من وزارة جيش الرايش، بينهم المقدم تشونكه محرر أنور باشا.

عندما أُعيد تنظيم الجمعية من جديد في آذار من عام 1926، اعتبر نيدرماير هذه الخطوة مهمة إلى درجة أنه احتفظ بالتعليمات التنفيذية الداخلية بين أوراقه الخاصة، رغم انه انتهك بذلك التوجيهات الخاصة بالسرية[4]. بعد ذاك، اقتصرت إدارة جميع الشؤون العسكرية / السياسية والتقنية التسليحية، الخاصة بالعمليات السرية، على رئيس مكتب الوحدات حصرا، وهو إجراء طبّق أيضا على سلطة التصرف بالاموال، وإمداد مشاريع روسيا، والاتصالات البرقية والكتابية. بينما صار «مكتب الجيش» مختصا بالجوانب التقنية والاقتصادية من التعاون، على أن يتقيد بالخطوط التوجيهية التي يصدرها مكتب الوحدات.

كان ممثل وزارة جيش الرايش في موسكو مسؤولا عن جميع قضايا الجمعية، وارتبط مباشرة بالشعبة ت 3 (الجيوش الأجنبية) في مكتب الوحدات، وجرت من خلاله سائر المراسلات العسكرية بين برلين وموسكو. أخيرا، أكدت التعليمات التنفيذية بتاريخ 11 آذار 1926 على ما يلي: «بذلك، يكون ممثل وزارة جيش الرايش الجهة التي تتجمع لديها قضايا سياستنا العسكرية في روسيا، أما نائبه فهو الرائد المتقاعد أوسكار فون نيدرماير».

أمير وفارس

كسب جوستاف شتريزيمان، وزير خارجية جمهورية فايمار الذكي العامل لإقامة توازن دقيق بين الغرب الشرق، حرية حركة تجاه الغرب في

4. تركة أوسكار ريتر فون نيدرماير: الارشيف البافاري ـ رقم 122/ 3.

obeikandi.com

مجال السياسة الخارجية بين عامي 1924 و1929. وتم خلال وزارته تطوير التعاون السري مع الجيش الأحمر وتوسيعه بصورة منهجية. كما كان مطلعا أولا بأول على أنشطة نيدرماير في موسكو.

كان وجود الرائد المتقاعد في موسكو عبئا سياسيا وإنسانيا ثقيلا بالنسبة إلى السفير جراف بروكدورف ـ رانتساو. وقد لخص في تقرير «سري جدا» كتبه بخط يده وبعث به إلى جوستاف شتريزيمان مجريات لقائه الأول مع نيدرماير، الذي طلب مقابلته يوم 1 نيسان 1924، بعد فترة قصيرة من تعيينه نائب مدير «مركز موسكو».

التقى الأمير والفارس مساء الرابع من نيسان عام 1924، ورأى السفير أن اللقاء كان على قدر من الأهمية جعله يكتب بعد نهايته مباشرة تقريرا عنه إلى شتريزيمان، وقد شغلته في الليالي التالية كذلك مجريات ومضامين اللقاء. كتب الأمير يوم 9 نيسان 1924 في مذكرة إلى الوزير، أنجزها في الثالثة صباحا، الجملة التكميلية التالية: «أعلن هنا بقوة القسم الوظيفي الذي أديته أن محتوى هذه المذكرة لا يتفق فقط مع روح بل كذلك مع النص الحرفي للانباء التي أبلغني أياها السيد فون نيدرماير»[5].

جاء نيدرماير لهدف محدد هو إزالة تحفظات السفير على شخصه ووضع حجر الأساس لعلاقة عمل مقبولة بعض الشيء بينهما. وقد بادر إلى الحديث عن «تهمة» العمل في الماضي ضد بروكدورف ـ رانتساو، ورفض هذا الافتراض بشدة، وأعلن أنه اعترض على الاتهامات ضد الأمير، رغم أنه لم يكن بينها أي اتهام ماس بكرامته، ويستطيع تقديم أدلة خطية على صحة ما يقول. وبالمناسبة، فقد كان هو نفسه هدف دسائس متنوعة، سمى فيرنر

5. تركة الجراف في وزارة الخارجية الألمانية. وكذلك الوثائق الخطية التي كتبها السفير اللاحق في موسكو فون ديركسن بين آذار 1926 وآب 1928، وتظهر فيهما صورة دقيقة عن الخلافات بين وزارة الخارجية وبين وزارة جيش الرايش ودور نيدرماير.

أوتو فون هانتيج كواحد من مصادرها. وزعم أنه لم يقطع إطلاقا وعوداً لم يف بها. وقال إن في حوزته عشرين رسالة من وزير الخارجية السوفياتي تشيتشرين، تتضمن شرح طريقته في العمل. إذا كان هذا الزعم صحيحا وليس خدعة، فإنه يكشف العمق المذهل لصلات نيدرماير مع القيادة السوفييتية. بهذا الاعتراف، مس الفارس حساسية السفير الفخور بدوره كوسيط سياسي، فرفض عرض التوسط بين فون سيكت وبينه، بقصد التفاهم بينهما.

صعد السفير منحى التوتر في نهاية تقريره إلى وزير الخارجية، وأورد ملاحظات تضمنت نقدا ذاتيا وجهه نيدرماير إلى نفسه، رأى فيها تأكيدا كاملا لصحة موقفه منه. بذلك، صار باستطاعته كرجل دولة وكسيد في قيادة جيش الرايش، التي قالت شروحه إنها موشكة على الفشل، أن يظهر تسامحه بشهامة: «في نهاية اللقاء، سألني نيدرماير حرفيا، حسب ما أتذكر: «هل تسمح سعادتك لي بتوجيه رجاء آخر إليك؟. وعندما أعلنت موافقتي، استأنف حديثه: «أرجوك باستعطاف أن لا تستغل كثيرا انتصارك ضدنا، بعد أن أظهرت المفاوضات هنا عجز دائرتي». أخيرا، انتهت المقابلة بصورة مسرحية، فيصف السفير كيف مد يده إلى نيدرماير مصافحا تحت تاثير الانطباع الذي أحدثه لديه هذا الإعلان، وكيف أجابه: سيد نيدرماير، أشكركم على هذه الصراحة، أنا لا احتفل بأي انتصار بل إنني جد حزين، لأن الأمور بلغت هذا الحد من الإضرار بالبلاد والشعب. وعلينا أن نبحث الآن كيف نتعاون بثقة».

بقيت علاقة نيدرماير مع بروكدورف ـ رانتساو سيئة حتى موته، رغم المصافحة الحارة بينهما، فكانت تحدث دوما احتكاكات صغيرة أو كبيرة بينهما في موسكو، وجدت على الدوام بواعث كافية لها، منها أن مفتشا حكوميا اكتشف في تموز من عام 1925 طردا مليئا بالبنادق، بينما كان يحضر بريد وزارة الخارجية. كما حاول نيدرماير في تموز عام 1925 الحصول على

جوازات سفر ديبلوماسية عبر مكتب الوحدات. وأخيرا، أخبر السفير في مذكرة أخرى «سرية جدا» بعث بها يوم 18 آب 1925 إلى وزارة الخارجية عن حديث دار بينه وبين العقيد ليث ـ توسمان، موضوعه إحدى القضايا المركزية في علاقات برلين وموسكو، فقد تحدث العقيد، الذي كانت تربطه علاقات شخصية طيبة مع السفير، عن مهمة قد تثير المشاكل، هي أن الجنرال أوتو هاسه، مدير مكتب الوحدات، رجا «مركز موسكو» إرسال تقارير سياسية دورية إلى برلين، وأنه كلف نائبه نيدرماير بتحمل المسؤولية عن ذلك. كان السفير يعتقد أن نيدرماير أوحى إلى برلين بإصدار هذا التوجيه، واتهمه بأنه «يحاول هنا جمع معلومات في كل مكان، ويحشر نفسه في كل أمر، بدافع من طموحه الشخصي». كان بروكدورف ـ رانتساو شاكرا لهذه الإشارة.

السير على حافة الهاوية

إلا أن السفير خشي الدخول في مواجهة مفتوحة مع وزارة جيش الرايش، فالديبلوماسي الرفيع الحساسية إنسانيا وسياسيا كان يعلم كل العلم أن الصلات العسكرية مع موسكو ليست فقط عنصرا منعشا في العلاقات الألمانية / السوفييتية، بل بقيت مكونا مركزيا في سياسة التوازن الألماني بين الغرب والشرق، بعد الانفراج مع فرنسا بفضل شتريزيمان. أعتقد بروكدورف عقب التوصل إلى اتفاقية لوكارنو في 16 تشرين الاول عام 1925 أن التنسيق العسكري السري هو الأداة الوحيدة لضمان استمرار العمل السياسي مع موسكو، فأبدى موافقته على إرسال تقارير سياسية من «مركز موسك» إلى وزارة جيش الرايش، شريطة إطلاعه عليها قبل إرسالها. هل وافق «المركز» وكيف ترجم موافقته على هذا الاقتراح، هذا ما ليس معروفا.

مهما يكن من أمر، فقد راقب نيدرماير خلال الفترة التالية جميع أوجه العلاقات الألمانية / السوفييتية، وحلل حتى تأثيرها على السياسة الداخلية

في ألمانيا. من ذلك أن تقريره بتاريخ 9 تموز 1926 لم تكن له أية علاقة على الإطلاق بالسياسة العسكرية، وتركز على الاستفتاء الشعبي حول إجراء تأميم دون تعويض يستهدف ممتلكات بيوتات الأمراء الألمان الذين أسقطوا، لأن مجرى ونتائج الاستفتاء أكدت للبلاشفة في موسكو كم كانت واهية الأسس السياسية الداخلية والاجتماعية لجمهورية فايمار.

كان الشيوعيون القوة الدافعة وراء الاستفتاء، وسجلوه في رصيدهم باعتباره نجاحا سياسيا مرموقا لهم، تغلبوا بواسطته على عزلتهم السياسية الداخلية، بعد كارثتهم السياسية في تشرين الأول عام 1923، وعبؤوا الجماهير عبر موضوع شعبوي، وفرضوا جدولهم الزمني على الحزب الديموقراطي الاجتماعي وأوثقوا قيده، وأطلقوا خزين احتجاج هائل خارج صفوف الطيف اليساري. وعلى الرغم من أن استفتاء 26 حزيران عام 1926 لم يحصل إلا على 14،5 مليون صوت من العشرين مليون صوت الضرورية لإحراز الأغلبية المطلوبة، فإنه كان يحق للشيوعيين الألمان ومن يوجهونهم في موسكو الشعور بالسعادة.

أعطى نيدرماير نفسه أسبوعين، قبل أن يقوّم بعناية مبادرة الشيوعيين الذكية وسذاجة الحزب الديموقراطي الاجتماعي. وقد تحول تقريره يوم 9 تموز 1926 إلى تحليل شامل للعلاقات الألمانية السوفياتية من منظور موسكو. وبعد ستة أيام، في 15 تموز 1926، قدم مكتب الوحدات التقرير إلى العقيد كورت فون شلايشر، مستشار الرايش اللاحق، من أجل ان يطّلع عليه[6].

لفت نيدرماير أنظار قرائه البرلينيين إلى أن القيادة السوفييتية لا ترى في الاستفتاء الشعبي الفاشل هزيمة شيوعية. صحيح أن التوقعات المبالغ فيها لم تتحقق، إلا إن البلاشفة كانوا سعداء بالنتيجة الإجمالية، نظرا لضربة عام

6. اشكر السيد مانفريد تسايدلر على إشارته إلى تقرير نيدرماير الغني.

1923 وضعف الحزب الداخلي. إن الأربعة عشر مليون ونصف المليون صوت، التي أيدت تأميم الأمراء كانت في نظرهم نجاحا باهرا للحزب، التابع للجنة موسكو المركزية أكثر من أي حزب شيوعي آخر في أوروبا: «لا يجوز الشك في أن موسكو هي التي تضع شعارات المعركة الاجتماعية التي يرفعها الحزب الشيوعي الألماني». كان نيدرماير يعرف قليلا أسلوب التوجيه عن بعد، ويعرف جيدا أساليب إشاعة الفوضى السياسية ذات المرامي البعيدة وطرق الدعاية، ويعرف أخيرا أن الشيوعيين الألمان يتلقون توجيهاتهم من الكرملين.

لهذا السبب، نصح نيدرماير وزارة جيش الرايش باستراتيجية مزدوجة تقوم على حسابات دقيقة ونهج ذرائعي، تجمع بين تدابير داخلية قاسية ضد الشيوعيين وتعاون عسكري وثيق مع الاتحاد السوفياتي: «بسبب حرية الحركة المعطاة للشيوعيين في ألمانيا وما يرتبط بها من أخطار كثيرة، من الضروري الإشارة مجددا إلى أن الخبرات التي جمعناها حتى الآن تؤكد أن سلوكا قاسيا ضد الشيوعيين في ألمانيا لن يلحق بالضرورة ضررا بالتعاون العسكري مع الاتحاد السوفياتي، وإنما يمكنه تنقية العلاقات المتبادلة بطريقة مرضية، وأن يحصرها في إطار عسكري وسياسي خارجي صرف يتفق مع مصالحنا، ويستطيع وحده إبقاء علاقاتنا قادرة على العيش لمدى طويل».

كان نيدرماير محقا في تحذيره من دعاية وتغلغل وتخريب الشيوعية. وعلى سبيل المثال، فقد كلفت موسكو قبل أسابيع قليلة من الاستفتاء الشعبي اللجنة المرمزية للشبيبة الشيوعية الألمانية «بالتغلغل في صفوف العدو وجمع معلومات حول قوته وخططه. ولفتت نظرها إلى أن الشبيبة الشيوعية لم تحقق الكثير بعد في هذا المجال». ووجهت لجنة موسكو المركزية شيوعيي ألمانيا الشبان إلى: «القيام تدريجيا ووفق خطة منهجية بتأسيس خلايا في جميع مؤسسات الدولة البريدية والبرقية»[7]. إن التعاون مع روسيا

7. وثيقة ر31507 في الأرشيف البروسي. «وثائق روسية سرية، تغلغل وتخريب».

السوفييتية لم يكن عملا من أعمال السياسة الخارجية والأمنية وحسب، بل كان سينجح في حالة واحدة هي بقاء الشيوعيين محاصرين سياسيا داخل ألمانيا. لذا، يجب أن تساهم قيادة جيش الرايش في صياغة السياسة الداخلية، من أجل الحيلولة دون وقوع تأثير يربك «صلتنا الضرورية حياتيا مع روسيا».

كانت استقالة فون سيكت يوم 8 تشرين الأول عام 1926 ضربة شديدة سياسيا وإنسانيا بالنسبة إلى نيدرماير. كان سيكت، الذي صار مغرورا ومتعاليا، قد استقطب بصورة متزايدة حنق وزير جيش الرايش جيسلر وغضب البرلمانيين والرأي العام. وعندما تسرب إلى الصحف في أيلول من عام 1926 أنه سمح لنجل ولي العهد السابق البكر بالمشاركة في تدريبات فوج المشاة التاسع، طفح الكيل، وتركه وزير جيش الرايش وحكومة الرايش وحيدا في مواجهة نقد الرأي العام، فاضطر إلى وضع قبعته على رأسه ومغادرة مكتبه الرسمي.

بعد عشرة أيام من استقالة سيكت، في 18 تشرين الأول 1926، كتب نيدرماير رسالة إلى رئيسه المحترم[8]، يعطي أسلوبها ومضمونها انطباعا عن علاقتهما:

«السيد العماد الجزيل الاحترام،

لم يسبق لي خلال حياتي أن وجدت صعوبة في التقاط القلم كالتي أجدها اليوم، من أجل أن أعبر لرئيسي المحترم خلال سنوات طويلة عن ألمي العميق بسبب تركه المبكر جدا للخدمة. إن ما يعنيه السيد العماد لألمانيا ولقضيتنا هو أمر أفهمه بصورة خاصة وأكثر من معظم الآخرين، لذلك لا أرى في استقالته غير مأساة قومية. وإنني لعاجز عن وصف أيام

8. توجد الرسالة في تركة سيكت، رقم 247/122.

الضيق التي عشتها هنا، بعيدا عن الأخبار الدقيقة. وعندما وصلتني التفاصيل من الوطن، بعد أن كنت أتهرب من عاصفة أسئلة أصدقائنا القلقة المستمرة، تملكني غضب لا اسم له بسبب الجحود القبيح ولعبة الدسائس.

إنه لشرف رفيع لي أن أنتسب إلى الحرس القديم لبيت سيكت، وإنه لأحب شيء إلى نفسي هذه الأيام أن أكون في برلين، لأتمكن من التعبير شخصيا عن غمي، وشكري وتمنياتي.

فعلت ما باستطاعتي كي ألطف الانطباع السئ الذي أحدثه الخبر هنا. وعقدت مداولات مع جميع الشخصيات المؤثرة، وكان لي اليوم أيضا حديث طويل مع موظف رفيع في مفوضية الخارج: ويؤسفني أنه كان علي إقناع نفسي بأن أبعاد هذا الحدث السياسي فهمته جيدا، بصورة أفضل كثيرا على الأرجح مما حدث في وطننا.

لقد اهتز بقوة إيماني بالتطور اللاحق لوضعنا هنا. والآن، حيث نفتقر إلى اليد القوية الحانية، فإننا لن نلبث نحن أيضا أن نسقط ضحايا بعد حين. مهما كان الأمر، فإنني أعد بشيء واحد في هذا اليوم: أن أتمسك بميراث السيد العماد المقدس وأبقيه في أرفع مكان».

أخيرا، يختم نيدرماير: «بولاء وتعظيم لا يحولان، أكثر رجال السيد العماد طاعة. نيدرماير.

بقي نيدرماير على اتصال مع سيكت إلى أن وافته المنية. أما سيكت نفسه، فواظب على الاهتمام بالقضايا الخارجية / الأمنية، وانضم إلى حزب شتريزيمان الليبرالي الشعبي الألماني، وصار عضوا في برلمان الرايش، دون أن يلعب، مع ذلك، أي دور سياسي مركزي. لكنه كان يصغي من حين لآخر في شتاء عام 1927 / 1928 إلى تقويم نيدرماير والرائد فيشر للسياسة العسكرية الروسية / الألمانية، وقد استقبل يوم 17 كانون الأول عام 1927 في برلين ثلاثة ضباط روس سامين، بينهم وزير حرب ستالين كليمنت

فوروشيلوف، ليعبر لهم عن شكره الشخصي من أجل التعاون الطيب في السنوات الأخيرة.

بعد سقوط سيكت عام 1926، لم يتقن أحد في وزارة جيش الرايش السير على حافة الهاوية السياسية كما اتقنها العقيد كورت فون شلايشر. لقد كان على رأس المكاتب العسكرية التي حملت اسم «الشعبة السياسية (القوات المسلحة)»، وقد وصله تقرير نيدرماير حول رد فعل موسكو على الاستفتاء الشعبي، كي يأخذ علما به، لأن التنسيق مع الاتحاد السوفياتي كان مهما بالنسبة له قدر ما كان مهما بالنسبة إلى سيكت، وهو الذي شارك منذ عام 1920 بصورة مباشرة في الاتصالات السرية مع البلاشفة، وجرت بين فينة واخرى لقاءات سرية مع مبعوثي موسكو في منزله البرليني الخاص. لكنه لم ير، بخلاف سيكت، هذه الاتصالات في ضوء وجهات نظر استراتيجية وجيوسياسية، بل أدخلها أيضا في حساباته السياسية الداخلية، لإدراكه كرجل سلطة ذرائعي ومحنك، أن القوى والأفكار اليسارية يمكن أن تصير أيضا جزءا من مشاريعه في الجمهورية الألمانية.

لم يخف على نيدرماير أن فون شلايشر، الذي صار منذ عام 1929 جنرالا ونائبا فعليا لوزير جيش الرايش، يمتلك طموحا سياسيا متطورا، وأنه لا يخلو من غرور. وقد وطّن نفسه على ذلك وأرسل مطلع عام 1930 تحية عيد فصح شخصيه إليه قال فيها[9]: «عدت من جديد قبل اسبوعين إلى موسكو. إنني أراقب التطور الجديد في هذه البلاد، الذي يبدو أنه سيفضي إلى تبدل يستحق الملاحظة من علاماته ارتفاع أهمية الجيش ارتفاعا كبيرا بالنسبة إلى السياسية الداخلية». لم يخف نيدرماير إعجابه بالشعب الروسي: «إن قدرة هذا الشعب على تحمل الألم وقوته الحياتية هما شيء أسطوري، وإنه لبعيد جدا عن الجوع». ولأنه كان يعرف أن هدايا موسكو التذكارية

9. في تركة شلايشر، رقم 42/ 35.

تستطيع إدامة حب بعض رؤسائه في برلين، فقد أرسل هدية صغيرة إلى شلايشر: «ولا زال هناك دوما كافيارنا، الذي أبعث منه اليوم عينة صغيرة إلى السيد الجنرال، إشارة إلى احترامي المقرون بأفضل التمنيات».

خمن نيدرماير بطريقة صحيحة مصلحة الجنرال السياسية وذوقه الغذائي. وأكدت رسالة الشكر المكتوبة بخط شلايشر أن الجنرال يعرف كيف يقدر الكافيار الروسي والتقارير الممزوجة بتوابل السياسة الداخلية: «عزيزي السيد نيدرماير، أشكركم جزيل الشكر على أسطركم التي بعثت بها إليّ من موسكو وعلى الكافيار، الذي جعل مزاق عيد الفصح حلوا في فمي. لقد أثارت أخباركم اهتمامي، لأن ابا الهول الروسي سيلعب عندنا أيضا دورا مهما خلال الفترة القادمة، وتحديدا في مجال السياسة الداخلية. من وجهة النظر هذه، تكتسب الأخبار الاصلية القادمة من روسيا أهمية كبيرة بالنسبة إلي. أتمنى لكم كل خير وأبعث إليكم بتحياتي الكثيرة. المخلص شلايشر».

هموم الديبلوماسيين

يلتقي المرء، من حين لآخر، في أروقة وزارة الخارجية بأناس يثيرون العجب. وقد ارتطم ديبلوماسي شاب مطلع العشرينات بنيدرماير في شارع فيلهلم. فوجئ فيبرت فون بلوشر، الذي كان يعرف نيدرماير من الحرب العالمية الأولى ويرى فيه ضابطا كثير المشاريع وذا طموح سياسي، وبدا ظهور الضابط المفاجئ غريبا في نظره، ولأن زملاءه لم يعرفوا بدورهم ما كان نيدرماير يفعله في وزارة الخارجية، فقد قام باستقصاءات وعرف ـ بعد بعض المصاعب ـ أنه كان يقوم بمهمة سرية في موسكو لصالح سيكت. حذر بلوشر مخبره قائلا: «أعرف الجوانب المضيئة والعاتمة لنيدرماير أكثر من السادة الآخرين في الوزارة. إن دماء المغامرة تجري في عروقه، وهو يشبه آلة قوية بلا كوابح، ولو كان موزع بريد مكلفا بإيصال رسالة عادية،

لكان محتملا أن يعتبر نفسه مفوضا بعقد معاهدة تحالف»[10].

لم يكن بلوشر القلق الوحيد بسبب أنشطة نيدرماير الغامضة، بل كان قلق المستوى القيادي في وزارة الخارجية أكبر بكثير من قلقه منذ عام 1926. وقد سلم الأمير بروكدورف ـ رانتساو خلال زيارة إلى عاصمة الرايش في كانون الثاني عام 1926 أربعة كتب «سرية جدا» إلى سكرتير الدولة في وزارة الخارجية كلاوس فون شوبيرت راجيا تقديمها إلى وزير خارجية ومستشار الرايش.

كان فون بروكدورف ـ رانتساو يعلم أن سكرتير الدولة في الوزارة يقاسمه همومه، لكنه لا يريد مثل السفير وبلوشر وضع أنشطة نيدرماير في موسكو تحت رقابة السفارة والوزارة، ولا يلائمه هذا التوجه بكامله، بسبب الاختلاف الجذري بين تصور فون شوبيرت عن السياسة الخارجية وبين التوجه الجيوستراتيجي الذي مثله فون سيكت وقيادة جيش الرايش[11].

أظهر عام 1923 لعيني الديبلوماسي الأريب ضعف الرايش العسكري، ووضع ألمانيا الاقتصادي المأساوي وظروفها الداخلية غير المستقرة. وأقنعه أن الاستقرار السياسي والاقتصادي والاجتماعي غير ممكن إلا عبر توازن مصالح سلمي يقوم على الاعتراف بالأمر القائم، وأن من الضروري بالدرجة الاولى التفاوض مع القوى الغربية من أجل جعل جمهورية فايمار قادرة على الحياة، بما أن القضايا لاقتصادية وقضايا التعويضات جميعها متداخلة بقوة مع مصالح فرنسا الأمنية، بينما كانت معاهدة فرساي تعني كأمر واقع ان ضمان مصالح ألمانيا الاقتصادية والأمنية صار مرتبطا ببلوغ وضع تتحقق فيه

10. فيبرت فون بلوشر: طريق ألمانيا إلى رابالو. فيسبادن 1951، ص 152.

11. انظر حول شوبيرت، أكثر ساسة وزارة خارجية جمهورية فايمار عمقا في التفكير، كتاب بيتر كروجر: شوبيرت، مالتزان والصياغة الجديدة للسياسة الخارجية في العشرينات. صدر في 18 أيلول 1987 عن وزارة الخارجية في بون.

المطالب الغربية بالتتابع، مطلبا بعد آخر. من هذا المنطلق، أيد فون شوبيرت التقارب مع بريطانيا العظمى الذي راوده الأمل في أن تمارس تأثيرا معتدلا ومتوازنا على فرنسا والسياسة الأوروبية القارية بمجملها.

أقلقت سياسة التسليح السري، التي نفذتها قيادة الجيش، سكرتير الدولة. وبدا التعاون مع موسكو بالنسبة إليه مشروعا مفعما بالمغامرة وانعدام المسؤولية. وقد عانى من رؤى كابوسية حول حرب أوروبية كبيرة جديدة، وقال السفير البريطاني عنه يوم 22 شباط 1928: «إنه محكوم بالتشاؤم ويرى مستقبل ألمانيا من أكثر الأوجه سوادا». لم يخش فون شوبيرت دونما سبب أن ينضوي التعاون مع موسكو في إطار حرب أوروبية جديدة. لذلك، حاول دوما وضع العصي في عجلات جيش الرايش، لأن تعاونه مع نظام موسكو العنيف يهدد مستقبل ألمانيا وأوروبا، واعتقد مثل بروكدورف ـ رانتساو أن واجبه يلزمه بتقييد يطال خطوة إثر خطوة مجال الحركة الكبير وغير المراقب، الذي تتمتع به قيادة جيش الرايش.

كانت الكتب الأربعة «السرية جدا»، التي تلقاها سكرتير الدولة في كانون الثاني عام 1926 من بروكدورف ـ رانتساو، موجهة حصرا إلى رئيس الرايش ومستشاره ووزير خارجيته[12]. وقد أراد مرسلها أن تكون أساس مكاشفة توضيحية مع وزير جيش الرايش وسيكت، دعا فيها إلى تركيز العلاقات الروسية / الألمانية في يده، وعارض وجود معلومات سياسية / عسكرية موازية ترسلها أية جهة أخرى من موسكو إلى برلين، وقال بعدم جواز إجراء مفاوضات في المستقبل تقتصر على جهات عسكرية، بل إنه رجا مستشار الرايش ووزير خارجيته أن يطرحا أسئلة محددة على منافسه القديم فون سيكت، منها: «ألا يرتبط السيد فون سيكت عبر مبعوثيه بعلاقات

12. موجودة في الارشيف البروسي ـ أرشيف وزارة الخارجية تحت رقم ر29287، ب ل 13. ويبدو أن شوبيرت هو الذي طلب إلى السفير إرسالها، كي يستخدمها ضد قيادة الجيش.

مباشرة أو غير مباشرة مع الساسة الروس (ومنهم على سبيل المثال راديك والموظفين الشبان في مفوضية الخارج)؟. و: «هل تطلب وزارة جيش الرايش وبالأحرى العماد فون سيكت شخصيا من الضباط المرسلين إلى روسيا (كالرائد نيدرماير) تقارير سياسية أو معلومات مباشرة عن الوضع السياسي؟».

شغلت هذه الأسئلة سكرتير الدولة فون شوبيرت خلال الأشهر التالية، عندما تحولت سياسة التوازن والاستجابة، التي رسمها شتريزيمان، إلى عملية سير صعب على حافة الهاوية مساراتها ونتائجها غير مضمونة. فشلت يوم 17 آذار عام 1926 المحاولة الاولى لقبول ألمانيا في عصبة الأمم. بعد ستة أيام، في 23 آذار، جاء جوزيف أونشليشت، نائب مفوض الحرب في موسكو، إلى برلين، لإجراء مفاوضات حول مجالات تعاون جديدة بين البلدين. وفي 24 آذار عقدت اتفاقية برلين بين الرايش الألماني والاتحاد السوفييتي. صحيح أن الاتفاقية الجديدة لم تتضمن اتفاقات عسكرية رسمية، مثلها في ذلك مثل اتفاقية رابالو، ومع ذلك، بدأ منذ منتصف أيار 1926 في ليبشك تدريب طياري جيش الرايش المقاتلين.

كان على سكرتير الدولة العمل بحزم وسرعة، إذا كان يريد حقا مواصلة سياسة التوازن تجاه الغرب ووضع عقبات في وجه تصرفات الجيش. وقد طلب 12 تموز عام 1926 إلى ديبلوماسي شاب في سفارة ألمانيا هو المستشار أندور هنكي، الذي كان يمضي إجازته الصيفية في برلين، كتابة مشاهداته في موسكو، فإذا بها تثير قلقا عظيما لديه: «كان هناك ضباط سابقون أرسل بعضهم بمعرفة وتأييد الحكومة الألمانية من أجل هذا الهدف على وجه التحديد، وهم يعملون مدربين للطيران الحربي الأحمر، ويتبعون عقيدا متقاعدا هو فون دير ليث ـ تومسن، أرسلته وزارة جيش الرايش إلى موسكو».

وصف مستشار السفارة الشاب بطريقة صائبة أنشطة «مركز موسكو»: «هذا الضابط هو قائد بعثة دائمة تتبع وزارة جيش الرايش، مهمتها إدامة الصلة مع الجهات العسكرية الروسية والإشراف على النشاط العسكري والعسكري التقني الألماني في الاتحاد السوفييتي». ومع أن العقيد ونائبه نيدرماير تركا رسميا الخدمة الفعلية في جيش الرايش، فإن للحقيقة مظهرا آخر: «منح نيدرماير حق العودة إلى الجيش مراعاة لوضعه الحالي». كتب فون شوبيرت على هامش المذكرة بقرف: «قنابل، ذخيرة، قنابل غاز، صواعق، بنادق».

بعد يومين من تدوين ملاحظات هنكي، اصطحب شوبيرت زميله الشاب إلى محادثة مهمة[13] مع وزير جيش الرايش جيسلر، الذي التقاه الديبلوماسيان قبل ظهر يوم 14 تموز 1926، ومعهما مستشار شؤون التقارير هيربرت فون ديركسن. أحاط بالوزير مستشاره السياسي / العسكري العقيد فون شلايشر، والرائد فيشر، عضو «المجموعة الخاصة ر»، المسؤول في مكتب الوحدات عن «مركز موسكو».

استعرض شوبيرت، الذي كان قد علم بالتعاون العسكري السري مع موسكو منذ تعيينه سكرتير دولة في وزارة الخارجية، جميع أطياف التنسيق السري أمام عيني الوزير، كاستيراد الذخائر من روسيا إلى ألمانيا، ودعم التسليح الروسي بالمال والملاكات، وإنتاج غازات سامة، وتشغيل مدرسة الطيارين، ووجود مدربين ألمان لدى القوات الجوية السوفييتية، وأنشطة العقيد فون ليث ـ تومسن ونيدرماير في موسكو. وأضاف أن هذا كله يمثل انتهاكا فاضحا لمعاهدة فرساي.

رد الوزير ومستشاراه ببرودة واسترخاء وقالوا إنهم لا يخشون افتضاح السر. أما فيما يتعلق بتورط حكومة الرايش الذي لا يحتمل، فاقترح جيسلر

13. وزارة الخارجية، ر3520، ملف 262 ـ 275.

على مستشار الرايش التنصل من المسؤولين عن العلاقات السياسية / العسكرية مع روسيا. عندما أصر فون شوبيرت وأخبر الوزير «أنه لا يرى غير نتائج كارثية بالنسبة إلى أوروبا، إذا لم ينجز خلال العامين المقبلين اتحاد اقتصادي يضم الدول الأوروبية»، اكتفى جيسلر بالقول: إنه لا يستطيع تغيير وجهة نظره.

كان شوبيرت يقف منذ بداية المحادثة في الموقع الخاسر، لأن «تنظيم المعركة» لم يكن صحيحا، فبينما تمثلت وزارة جيش الرايش في الوزير وضابطين طموحين وخبيرين سياسيا، أرسلت وزارة الخارجية إلى المعمعة سكرتير دولة وموظفين صغيرين لا يسعهما التأثير في تصميم ضباط جيش الرايش على صياغة سياسة خاصة بهم. زد على ذلك أن مستشار الوزارة لشؤون التقارير كان يعتقد أن قلق سكرتير وزارته مبالغ فيه، بينما كان مستشار السفارة الشاب مجرد مستمع وحسب، وغاب الرجل الأكثر أهمية: وزير الخارجية شتريزيمان، الذي تهرب بذكاء وناور كثيرا كي لا يحدد موقفا شخصيا وسياسيا نهائيا. كيف كان بوسع سكرتير الدولة تغيير أي شيء في سياسة جيش الرايش السرية، تحت ظرف كهذا؟.

بعد عامين، في نيسان 1928، راودت بروكدورف ـ رانتساو شكوك جدية في نوايا شتريزيمان السياسية الحقيقية. هل كان الوزير غير مهتم على الإطلاق بتقييد صلات جيش الرايش السرية مع موسكو؟. وهل كان يرحب بها في السر؟. كان قد مر شتاء آخر في موسكو، حين كتب الجراف من جديد رسالة طويلة «سرية جدا» إلى وزير خارجيته. كان الجو في موسكو يرفض أن يصير ربيعيا، وكان بوسع من عايش أشهر الشتاء الروسية الطويلة أن يقدر كيف بدا وضع السفير الجسدي والروحي وهو يخبر شتريزيمان في 12 نيسان 1926 «إنه لا أشياء الفترة الأخيرة غير الودية ولا الحمل الثقيل جدا أثرا سلبيا على عملي، إن ما أثر فيه هو بالأحرى الخشية من أن يكون ضرب من البرودة قد أصاب علاقاتنا الشخصية في الأشهر الأخيرة، وسرّب

إليها نقصا في الثقة سيجعلها غير قابلة للاستمرار في المدى الطويل»[14].

ذكّر السفير شتريزيمان أن رئيس الرايش أيبرت أخبرهما أن سياسة جيش الرايش ليست غير «طيش صبياني». «كنا آنذاك في الخامس عشر من أيلول عام 1923، وكان علي عرض وجهات نظري حول هذه القضايا على السيد إيبرت قبل ساعات قليلة من عودتي إلى موسكو. وكنا، سعادتكم وأنا، قد دعينا لتقديم تقرير مشترك، مع أنني كنت قد ودعت سعادتكم شخصيا قبل ذلك مباشرة في قصر مستشار الرايش. وعندما تطرقنا إلى القضية، ونحن على الطريق القصير الذي يقود عبر الحدائق إلى قصر الرئيس، أوضحتم سعادتكم لي بصيغة قطعية وجهة نظركم الرافضة لاستمرار التعاون السري مع موسكو». لكن إعلان شتريزيمان يوم 15 أيلول لم تردفه أية افعال، مع أن مدرسة الطيارين الحربيين في ليبشك بلغت خلال فترة عمله كوزير خارجية ذروة قدراتها التدريبية، وبدأت في الوقت نفسه مدرسة الدبابات في قازان، وباشر مخبر الغاز السام في فولسك العمل، واستمرت برامج العسكر بعد انتخابات برلمان الرايش يوم 20 أيار 1928، رغم أن «التحالف الكبير» بقيادة المستشار الديموقراطي الاجتماعي هيرمان موللر كان فرصة ملائمة لتنظيف البيت.

بقي التكتيكي الذكي شتريزيمان وزيرا للخارجية تحت قيادة مستشار ديموقراطي اجتماعي كان رفيقه في الحزب فيليب شايدمان قد فضح في البرلمان عام 1926 صلات جيش الرايش السرية مع الجيش الاحمر. لكن حكومة الرايش الجديدة، التي عرفت أسرار ما كان يحدث، لم تفعل شيئا، واكتفى موللر بالقول، حين أخبره وزير جيش الرايش جورنر يوم 29 حزيران 1928 في حضور ممثل عن وزارة الخارجية بوجود مدرسة الطيارين السرية في روسيا: «هذه القضية يمكن أن تفضي إلى وضع غير مريح، إن هي

14. هذه الرسالة موجودة في الارشيف الألماني، الجزء 8، الوثيقة 229، ص 484 ـ 487.

كشفت». وافق ممثل وزارة الخارجية، فون ديركسن، بديبلوماسية على قول المستشار، ثم سجل تحفظه في محضر الجلسة: «أقول من جانبي أن هذه القضية سيكون لها عواقب وخيمة»، قبل أن يتبنى طريقة عرض جيش الرايش للمسألة، مع أنها تضمنت مغالطات كثيرة أبلغت إلى المستشار الجديد، ويزعم أن مرافق قازان وفولسك قد اغلقتا، وأن شتريزيمان ووزارة الخارجية يستطيعان التعايش مع مدرسة الطيارين في ليبشك.

كتب ديركسن معبرا عن موقف وزارة الخارجية: «قالت وزارة جيش الرايش إن الأمر يتعلق هنا بقضية ذات أهمية حياتية حقا، فبينت مرة أخرى نوع التوجيهات التي صدرت إليّ من السيد وزير خارجية الرايش شتريزيمان في العشرين من الشهر». وفي 29 حزيران 1928، بعد يوم من تأسيس «التحالف الكبير»، وافق مستشار الرايش هيرمان موللر، أول رئيس وزارة رايش يقودها الديموقراطيون الاجتماعيون منذ عام 1920، على التدريب السري لـ43 ضابط عامل كطيارين. ولاحظ ديركسن: «قال السيد مستشار الرايش في النهاية إنه يريد إعلان موافقته على إرسال هؤلاء السادة».

عرف جراف بروكدورف ـ رانتساو مطلع آب 1928 بقرار حكومة الرايش[15] عن طريق وزير جيش الرايش، ذلك أن السفير سقط خلال إجازة في الوطن فريسة مرض شديد، فقام جورنر بعيادته في برلين، وانتظر قرابة ساعتين قبل أن يسمح له بدخول غرفته. بدأ الوزير كلامه بتقديم الشكر إلى السفير باسم جيش الرايش على نشاطه الطويل والناجح في موسكو، ورجاه أن يواصل دعمه لمدرسة الطيارين، ومدرسة المدرعات ومنشأة تجارب الغازات السامة.

في هذه الأثناء، أعلم جرونر السفير برفق أن وزير الخارجية شتريزيمان أعلن «موافقته المفتوحة على العملية»، وأن جيش الرايش ضمن أيضا «موافقة

15. تركة بروكدورف ـ رانتساو في أرشيفه الشخصي وأرشيف وزارة الخارجية. ن ل 2/11.

مستشار الرايش الكاملة» عليها، وأنه لن يحدث بعد الآن شيء دون إعلام وزارة الخارجية. بعد هذا سأل وزير جيش الرايش السفير إن كان مسرورا من الرائد نيدرماير. فأجاب: «أرى في السيد نيدرماير رجلا عالي الكفاية ونشيطا ـ أتحدث بصراحة ولكن بصورة سرية ـ لكن الطموح يقتله، لذلك أتمنى أن يتم «لجمه قليلا». رد جرونر بابتسامة متفهمة وأكد أنه سيفعل هذا بكل سرور.

قام الجراف خلال الحديث بمحاولة أخيرة لتغيير رأي وزير الجيش. لقد كان يؤمن أن من الوهم الاعتقاد بإمكانية نشوء مزايا بالنسبة إلى ألمانيا من تعاون عسكري سري مع السوفييت، ولا يرى أية إمكانية لإعادة طائرة ألمانية واحدة أو طيار ألماني من روسيا إلى منطقة الرايش، إذا ما وقع هجوم بولوني. وافق جرونر على هذا الرأي، لكنه قال إن حجة السفير لا تمس النقطة الحاسمة، وهي النظر إلى التدريب على المدى الطويل. وأضاف: يرجع سنويا إلى ألمانيا ضباط شبان يحملون معهم الخبرات التي اكتسبوها في روسيا، هم ضمانة بناء سلاح الجو المقبل. شعر السفير بالإحباط عندئذ وأقلع عن الحديث حول هذه الواقعة: «إنني أتحاشى عن عمد إطلاق تصريحات متشائمة حول هذه النتيجة». بعد خمسة أسابيع من مقابلته الأخيرة مع وزير جيش الرايش وافت المنية أولريش جراف فون بروكدورف ـ رانتساو.

تولى هيربرت فون ديركسن منصب سفير ألمانيا في موسكو بعد بروكدورف ـ رانتساو. قدم موظف الخارجية المتحفظ، الذي كان يثير الانطباع بأنه شخص لا لون له، رغم أنه موثوق ومجرب، أوراق اعتماده في كانون الثاني من عام 1929. وكان قد تابع بدقة التوترات بين سلفه وبين جيش الرايش ونيدرماير، بعد أن أخبره بروكدورف ـ رانتسا و«بصورة شخصية وسرية «عن رغبة سيكت العودة عبر موسكو إلى برلين، في نهاية رحلة خاصة إلى اليونان. أن تخطيط الرحلة، الذي كان تنفيذه مستحيلا دون

إسهام نيدرماير، لم يكن مريحا على الإطلاق بالنسبة إلى السفير، الذي رأى في زيارة سيكت إلى موسكو «أمرا يثير أعظم القلق من الناحية السياسية»، ورجا فون ديركسن الحيلولة دون وقوعها.

أقام ديركسن بعد وصوله إلى موسكو علاقة طيبة، بل ودية إلى درجة تثير العجب مع نيدرماير. كان الموظف الدقيق والصاحي مسحورا بشخصية الضابط المغامرة، حتى أنه تذكر نيدرماير بمودة كبيرة بعد عقدين واعتبره شخصية خارقة وفاعلة، وقال إن «بافاريا موجودة في كل نقطة من دمه»، وأنه ممتلئ بالحيوية وله قسمات طهرانية، وأن تجارب السنوات الطويلة في الخارج لطّفت جيشانه وتكالبه السياسي. كان ديركسين يقدر نيدرماير قبل كل شيء كمحادث ذكي ومسل، لكنه كان يشعر بامتنان خاص له، بسبب استعداده الدائم للعب التنس معه، خاصة أنه كان يلعب أحسن منه بكثير.

أقام ديركسن، شأن نيدرماير، علاقات طيبة مع أعضاء الحزب القياديين، حيث كانت توجد إلى جانب أشخاص عاديين وبسطاء عقول لامعة يهودية الأصل غالبا مثل كارل راديك، الذي كان الحديث معه متعة حقيقية. بيد أن فون ديركسن لاحظ وجود حمية تكاد تكون دينية وراء سلوك محاوريه البلاشفة المتواضع وحديثهم المثقف، تجعل أي حوار سياسي معمق أمرا لا معنى له في النهاية، لذلك أعجبه ضباط الجيش الأحمر الذرائعيون أكثر مما أعجبه رجال الحزب، فقد كان الضباط جديين، متحفظين[16] ومؤثرين، يقومون بعمل تربوي مهم في القوات المسلحة، كما كانت حملتهم لمحو أمية جنود الجيش الأحمر الشبان إنجازا مهما للنظام السوفييتي، بل انه كان لبعض قادة السوفييت العسكريين مستوى فكريا يماثل أفضل ما لدى أحسن الضباط الألمان.

16. هيربرت فون ديركسن: موسكو ـ طوكيو ـ لندن. عشرون عاما من سياسة ألمانيا الخارجية. لندن 1951، ص 132.

أفاد ديركسن، القادم الجديد الذي افتقر إلى صلات ومداخل في موسكو، من علاقات نيدرماير عندما وقع بعد وصوله بأشهر قليلة حادث ديبلوماسي خلال مظاهرة أيار المركزية في الميدان الأحمر. كان برلمان الرايش قد وافق قبل فترة قصيرة على بناء بارجة حربية صغيرة، رغم معارضة نواب الحزب الشيوعي، فافتتح الكادحون السوفييت مظاهرتهم بمجسم يمثل بارجة، واتهمت يافطاتهم حكومة الرايش بتبديد 80 مليون مارك من أجل سفينة حربية، وبترك ملايين العاطلين عن العمل يموتون جوعا. كان علم الرايش بألوانه الأسود والأحمر والذهبي يرفرف على مقدمة السفينة الكرتونية، في حين رفرف على مؤخرتها علم الرايش القيصري بألوانه الأسود والأبيض والأحمر، وبدت على السطح مخلوقات عجيبة ترتدي قبعات عالية تمثل الديموقراطيين الاجتماعيين.

هذا الاستفزاز الخالي من اللباقة أثار المشاعر في برلين، رغم الأنباء المطمئنة التي أرسلها ديركسن بعد أيام قليلة، وفيها أن نيدرماير تحادث مع فوروشيلوف، وأن مفوض الحرب السوفييتي وافق على مطالب متعددة تقدمت بها وزارة جيش الرايش، كانت قد رفضتها قبل عشرة أيام. لقد بدا واضحا أن السفير وقائد «مركز موسك «كانا متفقين على رد الضرر عن التعاون العسكري الألماني السوفييتي الطويل الأمد. وعندما نشرت جريدة «سوفييتسكي إيكران» في عدد نوفمبر من عام 1929 صورة تحتها عنوان يقول: «بوديوني والملحقون العسكريون الألمان» يظهر فيها إلى جانب قائد الفرسان الأسطوري السوفييتي أوسكار فون نيدرماير وجنرال ألماني، هدأ فون ديركسن زملاءه المذعورين في وزارة الخارجية. وبالمناسبة، فإن نيدرماير والملحق العسكري الألماني اللاحق في موسكو إرنست كوسترينج كانا يخاطبان الفارس السوفييتي بلغة الإلفة: «أنت»[17].

17. معلومة تلقيتها من سكرتير الدولة المتقاعد فون هيرفارت.

رفاق

كان لكارل هاوسهوفر، الجيوسياسي البافاري وأستاذ شرف جامعة ميونيخ، رأيا رفيعا في نيدرماير يشبه رأي السفير فون ديركسن. وقد قدّر الأستاذ الضابط كصديق وكإنسان قوي الإرادة وكفكر خصب. وكان كورت فوفينكل، وهو صاحب مطبعة يميني التوجه سرعان ما انجرف في تيار الحزب النازي، قد أصر أن يعمل كارل هاوسهوفر نيدرماير معا، وخاطب الأستاذ قائلا: «سر معه يدا بيد إلى المدى الذي يمكنكما الذهاب إليه، وأفزعا أنتما الاثنان الناس برغبتكما في وضع الجيوسياسة تحت تصرف جيش الرايش»[18].

أعطى فوفينكل الاستاذ إمكانية عرض أفكاره على الرأي العام في «مجلة الجيوسياسة»، فاستغل بالعرفان فرصة نشر وتعميم أفكاره بين الناس، وهو الذي كان يرى في نفسه عالما ومربيا و«مفكرا سياسيا ألمانيا»، لطالما حاول إحاطة نفسه بحلقة مناضلين يقاسمونه أفكاره تضم كذلك أصدقاءه وتلامذته.

وجد هاوسهوفر في نيدرماير رفيقا. وعلى الرغم من فارق العمر بينهما، فقد جمعت الرجلين مشتركات كثيرة، فقد خدما كلاهما كضابطي مدفعية في الجيش البافاري، وكانا من الحلقة القريبة من الأستاذ دريجالسكي، الذي أشرف على أطروحتي الدكتوراه اللتين أنجزاها، وحظي بتقدير مهني وإنساني رفيع لديهما، كما كان أفق كل واحد منهما يتخطى أوروبا منذ فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى، وأفادا كلاهما علميا من خبرتيهما في الخارج، وكانا مؤمنين أن هزيمة عام 1918 لم تنه الصراع من أجل النظام العالمي المقبل.

18. هانس ـ أدولف جاكوبسون: كارل هاوسهوفر، جزءان. رسائل مختارة، الوثيقة رقم 67، ص 132.

واظب نيدرماير على اتصالاته المنظمة من موسكو مع هاوسهوفر. وأرسل له في 16 آب 1924 كتابا عثر عليه في موسكو وأخبره عن تطورات جديدة. حسب تصورات نيدرماير، كان خبراء التحريض السوفييت يعملون في الصين منذ صيف عام 1924 على دفع حركتها القومية إلى مجابهة الرأسمالية الأميركية. وكانت اليابان وروسيا السوفياتية والولايات المتحدة تتصارع في الوقت نفسه على استخراج النفط من شمال الصين. ويبدو من حديث نيدرماير أنه كان ميالا إلى الموقف السوفييتي[19].

أعلم نيدرماير صديقه في 7 آذار 1925 أن فيكتور كوب، ممثل البلاشفة السابق في برلين ومحاور جيش الرايش المجرب، سيعين سفيرا سوفييتيا في طوكيو، وأضاف: «إنه رجل يحظى بتقديري الرفيع، تجعله صفاته الرائعة ووجهات نظره الذكية المعتدلة الرجل المناسب للمنصب الجديد». التقط هاوسهوفر الخيط وبادر إلى إرسال مواد علمية إلى رجل موسكو الجديد في اليابان، فشكره نيدرماير يوم 8 نيسان عام 1925: «أبلغكم بعرفان صادق استلام رسالتكم الودية، التي تمكنت اليوم من نقل مضمونها إلى ك، وهو يغادر موسكو. وقد طلب إليّ شكركم مرات كثيرة وأعلمني أنه سيتكفل بما هو ضروري في أقرب وقت، وسيسعى إلى إقامة صلات».

لقي كتاب هاوسهوفر «داي نيهون» إعجابا خاصا لدى سفير السوفييت المقبل في طوكيو، الذي ثمن تثمينا عاليا أيضا مؤلفات الجيوسياسي البافاري الأخرى واعترف أنها تركت تأثيرا كبيرا على فكره السياسي. كتب نيدرماير إلى صديقه قائلا: «سأبقى على اتصال دائم معه بسبب الصداقة الشخصية، ولاعتقادي أن علاقات شرق وغرب أوراسيا المتبادلة ستلعب دورا أكبر في الفترة القادمة، التي سترمي ألمانيا بنفسها فيها بين ذراعي عصبة الأمم، طمعا في مزايا عارضة».

19. توجد رسالة نيدرماير إلى هاوسهوفر، التي كتبت يوم 16 آب 1924، في تركة الأخيرة، التي لم تحظ بعد بما تستحقه من عناية في أرشيف كوبلنز الاتحادي.

تبادل نيدرماير وهاوسهوفر من حين لآخر رسائل حول المسائل الراهنة في سياسة ألمانيا الداخلية والخارجية. بعد إلقاء السياسي الديموقراطي الاجتماعي فيليب شايدمان يوم 16 كانون الأول عام 1926 خطبة شهيرة ضد جيش الرايش وتعاونه مع الجيش الأحمر، شكا نيدرماير إلى هاوسهوفر قائلا: «أزعجتني بصورة خاصة الهجمات الطافحة بالخيانة التي شنها الديموقراطيون الاجتماعيون في برلمان الرايش، التي لا بد أنك تابعتها. وهي صفحة خزي جديدة في تاريخ ألمانيا السياسي، من الصعب اليوم معرفة عقابيلها على سياستنا الخارجية». ثم طلب دعم هاوسهوفر الإعلامي: «أعتقد أن الوقت قد حان، حتى من وجهة نظر جيوسياسية، للعمل ضد ما قوّم به أحزاب الوسط الألمانية والديموقراطيين الاجتماعيين ووزارة الخارجية، وهو قصير النظر في حقل السياسة الخارجية». وأبدى نيدرماير قلقه الشديد بسبب ما كشف من أسرار في البرلمان ووسائل الإعلام: «إن سياستنا الشرقية، القائمة على حسابات ومنظورات كبرى، مهددة اليوم بصورة جدية».

تعرف نيدرماير في موسكو على خبير الصين ميليوس دوستويفسكي، قريب الروائي الشهير. رجاه العالم المريض جدا، الذي لم يكن بلشفيا، تزويده بعنوان هاوسهوفر، فقام نيدرماير بالتوسط بين موسكو وبرلين. في 22 آب عام 1929، هنأ دوستويفسكي باسم مستشرقين موسكوفيين كثيرين بعيد ميلاد هاوسهوفر الستين، وامتدح مؤلفات المحتفى به بحماسة روسية. إن دراسات «الحدود في معناها الجغرافي والسياسي» و«جيوسياسة المحيط الهادئ» هي «دراسات تشي بأستاذية لا تجارى». وتنتهي التحية القادمة من موسكو بكلمات حارة: «إن العلم، هذا المقدس الثمين في نظرنا جميعا، يأمل في مؤلفات كثيرة أخرى يخطها يراعكم، وكلمات مشجعة تصدر عن فمكم».

في الرابع من كانون الثاني عام 1929، شكر نيدرماير هاوسهوفر على رسالة كان قد بعثها إليه بمناسبة رأس السنة الجديدة. وكان قد أمضى أيام

العيد في السرير مصابا بحمى راشحة شديدة أفاد منها في التأمل. لم تخف رسالته شكوكه في دوام قناعاتهما المشتركة: «إذا كنت قد قرأت بعض السودواية في رسالتي السابقة، فإنك كنت على حق فيما قرأت. إن سوداويتي ترجع بالدرجة الأولى إلى بعض حزن سببه عجزي عن إدامة علاقاتي مع أصدقاء وزملاء ومستشارين ومعلمين قدماء أعزاء بالطريقة التي أتمناها، وترجع كذلك إلى أنني ألاحظ غياب التبادل الفكري بيني وبينهم. يظهر هذا بصورة خاصة، عندما تمر أفكار المرء بمحاذاة الآخر ولا تتقاطع مع أفكاره، بسبب العيش لفترة طويلة في بيئات مختلفة».

ومثلما حدث عام 1923، عندما كان عاجزا على وجه التقريب عن تقييد «كتلة أفكاره الموارة»، أحس نيدرماير في منعطف عام 1928 / 1929 بالحاجة إلى التفكير وترتيب أفكاره: «لا ذنب لي في حاجتي إلى تأمل وفحص ومقارنة هذا التحول بالذات، الذي يتم وسط أحداث مضطربة ومحيرة. إنني لا أقوم بهذا، لأنني فقدت ربما طريقي وأهدافه، بل كي أبقى واقفا. عندما يكون المرء قد اجتاز مثل هذه التجارب الحياتية، فإن ضياعه لا يكون شاملا. لكنه قد تكون أصابتني عدوى «النقد الذاتي»، الكلمة التي يستخدمها محيطي كحل وشعار، وصرت أريد أن أرى إن كان الوقت قد حان للتخلص من العبء الذي أجره ورائي، ولإجراء تغيير صغير في اتجاهي إن تطلب الأمر إجراءه».

أراد نيدرماير زيارة الشرق الأقصى، لكنه لم يعرف في كانون الثاني من عام 1929 كيف يمكنه تدبير الأمر. لقد كان مربوطا بـ«مركز موسكو» ويساعد نفسه بالقراءة. لذلك سأل هاوسهوفر: «هل قرأت كتاب مالرو «الفاتح»؟». كانت رواية المثقف الفرنسي اليساري قد هيجت خيال نيدرماير بأبطالها من «الفاتحين الشيوعيين» الذين قرؤوا نيتشه وماركس، وقاتلوا في آسيا مع الصينيين المضطهدين ضد الامبريالية والرأسمالية الغربية. بعد أن نهارت في كانتون منتصف كانون الأول عام 1927 محاولة انتفاضة شيوعية وسط بحر من

الدماء، تعرف نيدرماير في موسكو على خبراء الانتفاضة العسكريين، الذين كان مالرو قد وصفهم بطريقة مؤثرة: «رأيت هنا بورودين وغال الحقيقي، المنظم العسكري لجيش تشان كاي تشيك، واسمه الحقيقي بلوشر، وهو شخصية أسطورية تأمر الآن منطقة أوكرانية العسكرية». لقد كاد الثوري ذو الاسم الألماني أن يصير ملحقا عسكريا سوفييتيا في برلين، لو لم ترفض حكومة الرايش اعتماده. لم يخف نيدرماير إعجابه بالثوري البلشفي: «بوجه عام، يوجد هنا شخصيات يندر أن يجد المرء مثيلا لها اليوم في أي بلد آخر، وخاصة عندنا. هذا بالتأكيد أحد أقوى انطباعاتي هنا: إنه شعب سليم ملئ بالقادة المستقبليين. ربما جاء وانهار ما يمكن أن يأتي وينهار، هذا الشعب لن يندثر، ويبدو أنه يكوّن ـ ربما لأول مرة في تاريخه ـ قادته من ذاته نفسها».

كان قائد «مركز موسكو»، ورجل ارتباط جيش الرايش مع الجيش الأحمر، قد أمضى عام 1929 وقتا طويلا جدا في منصبه، فلم يعد قادرا على وضع نفسه خارج تأثير المزيج المتفجر من أممية بطولية، ومزاج ثوري روسي وطني، وديناميا ثورية، وحماسة طوباوية مستقبلية. صحيح أنه تحدث عن ضرورة الاحتفاظ بمسافة حيال موسكو: «علينا أن نحافظ على مسافة كبيرة جدا عن البلشفية، لنكون قادرين بعض الشيء على فهم تأثيراتها جميعها». لكنه دعا في الوقت نفسه إلى تقارب معها لا يستند إلى أحكام مسبقة: «يجب أن نتخلى عن بعض القناعات المقدسة والمفاهيم الموروثة. وعلى الألماني أن يتعلم قبل كل شيء كيف لا يرى البلشفية في ضوء حزب ألمانيا الشيوعي وحده. وقد سبقنا إلى هذا آخرون يعيشون في بلدان آخرى، أبعد من ألمانيا عن الاتحاد السوفياتي».

حدّث نيدرماير أن رسالته الطويلة تعكس نظرات قلقة في تفكير محير وحائر. لذلك حاول إنهاءها بجمل مطمئنة: «هكذا، لقد ثرثرت من جديد كثيرا عن مدرستي، لكنني أعرف إلى من أثرثر. وأعرف كذلك أنني لن أقع

عندكم في شبهة الفكر الأحمر، وأرى بأعين صاحية جدا أن الحياة هنا ليست مريحة أو جميلة، بل هي منفرة من نواح كثيرة، ومع ذلك . . .».

نشر نيدرماير في أيلول من عام 1929 مقالة في مجلة هاوسهوفر باسم «أوروآسياتيكوس» المستعار جعل عنوانها «مشكلات الحدود في روسيا السوفييتية»[20]، اعتبر فيها أن السياسة الخارجية السوفييتية دفاعية، تخلو من أي ميل إلى تغيير أو توسيع الحدود بالقوة. وامتدح السياسة الداخلية للدولة كثيرة الشعوب بوصفها سياسة قومية متوزانة. ورأى، بالمقابل، الوضع في وسط أوروبا الشرقية بأعين نقدية، حيث تمثل الدول التي نشأت بعد الحرب العالمية مناطق حدودية عريضة، «ومناطق محشورة بين الشرق والغرب، كما يسميها هاوسهوفر، أكثر الجيوسياسيين أهمية». أخيرا، قال نيدرماير بتشاؤم: «ما دامت لعنة سياسة الحاجز لصيقة بهذه الدول، فإنها لن تخرج من وضعها المهدد».

طالب نيدرماير في المجلة بتفهم المواقف السوفييتية، مع أنه كان يعلم أن ميله إلى الشرق كان يذهب بعيدا جدا بالنسبة إلى هاوسهوفر. لكن الرجلان كانا يراهنان على «اليقظة التدريجية للوعي القاري»، الذي أعتقد نيدرماير أن «روسيا السوفياتية» تعززه كقوة أوراسية مسيطرة، وتوقع أن يبدي مفكر محافظ كهاوسهوفر تفهما للقيادة البلشفية في صراعها مع قوتي الأنجلوساكسونية البحريتين بريطانيا العظمى والولايات المتحدة: «إذا كان سلوكه يقوم على رفض الجانب الأممي والاجتماعي للبلشفية، فإنه لن يمر مرور الكرام على تأثيرها القومي».

وفي النهاية كان هذا «التأثير القومي» لاهتماماتهما العلمية المشتركة هو الذي ربطهما بالرباط الوثيق، الذي جعل هاوسهوفر يعرض على نيدرماير مخاطبته بـ«أنت» الرفاقية (طريقة المخاطبة بين الأصدقاء) رغم أنه أصغر سنا

20. مجلة الجيوسياسة، العام السادس (أيلول 1929) ص 776 ـ 782.

منه بستة عشر عاما. وقد عاد نيدرماير في 27 كانون الأول عام 1929 إلى هذا الحدث في رسالة بعث بها بمناسبة السنة الجديدة»[21]:

صديقي الوافر الاحترام

عند إلقاء نظرة أخرى على العام القديم يبز ضياء صورتك ضياء جميع الصور الأخرى. لا أستطيع ترك العام يبلغ نهايته قبل أن أشكرك مرة أخرى على دليل الصداقة الجميل الذي قدمته لي هذا العام. وليست لدي رغبة أتمنى لو تحققت اليوم أعظم من الرغبة في أن تكون هنا، وفي أن أريك العالم المحيط بي وأقول لك ما يجري اليوم حولي وداخلي. ليس هناك ما هو أكثر تناقضا من هذا، وليس هناك ما يمكن أن يبلبل أكثر منه أفكار مواطن وسط أوروبا العادي. وبما أن المرء لم يعد يستطيع السيطرة عليه بمفرده، فإنه يحتاج إلى صديق مثلك، يشاركه الفكر والطريق. على كل حال، ربما أتيحت لذلك فرصة في النصف الأول من شهر شباط في ميونيخ، لا شك في أنها ستدخل سعادة كبيرة إلى نفسي متى تحققت.

وقد قيض للطريق المشترك أن ينتهي إلى الكارثة المشتركة.

معارف من أفغانستان

شهدت عاصمة الرايش بين 21 شباط و9 آذار عام 1928 لأول مرة منذ ثورة تشرين الثاني شيئا من البهاء الملكي. لقد جاء الملك أمان الله في زيارة إلى برلين، واخترق موكب رئيس الرايش هندنبورج شوارع المدينة في سيارة مكشوفة يصحبة الملك الأفغاني، وتزاحم ممثلو الاقتصاد والبرلمانيون والعسكر خلال الاستقبالات، ونقلت الصحافة أخبار الأمير العجيب وبلاده. بعد ستة أيام من وصوله، أبلغت وزارة الخارجية سفارة ألمانيا في موسكو رغبة الملك في لقاء نيدرماير.

21. رسالة في تركة هاوسهوفر. الأرشيف الاتحادي.

جاء نيدرماير من موسكو وقابل الملك أمان الله. ترى، ما الشيء الذي لم يحدث مذ تقابلا عام 1915/ 1916 في كابول؟. كان نيدرماير قد حافظ على اتصالاته مع أفغانستان عبر شقيقه ريتشارد، الذي بنى منتصف العشرينات مرافق مياه قندهار، وكورت فاجنر، رجل ثقة الذي يعيش في كابول. وكانت بلاد الهندكوش قد شهدت تبدلا سريعا إبان السنوات التي أمضاها في موسكو، لأن الملك أمان الله أراد تحديث بلده، وإدخالها إلى العصر الحديث، فكان ممكنا الآن الوصول إلى كابول بالطائرة، ولم تعد أفغانستان البلد المغلق الذي جاء نيدرماير وهانتيج إليه خلال الحرب العالمية. أعد نيدرماير مذكرة خطية حول حديثه مع الملك برسم جيش الرايش، أوصلها ممثل من مكتب الوحدات إلى هيربرت فون ديركسن يوم 26 حزيران عام 1928. تشير الوثائق الرسمية إلى تقرير نيدرماير تحت اسم الوثيقة، لكن هذه لم تعد موجودة للأسف في وثائق وزارة الخارجية[22].

كانت المقابلة مع أمان الله أكثر إمتاعا من الذكريات التي واجهها نيدرماير في آذار من عام 1927، حين تحول منافسه القديم فون هانتيج إلى عدو لا يهادن، لأسباب شخصية صعبة جعلته يحمل نيدرماير مسؤولية فشل زواجه.

كان الحدث الذي أطلق العنان لشقاق آل هانتيج لقاء عائلي في منزل أهل زوجة هانتيج، سخر أهل الزوجة فيه من هانتيج لأن نيدرماير تحدث عنه في مذكراته «تحت شمس إيران اللاهبة» كشخص هامشي، بينما عرض هو الأمور بطريقة مختلفة في كتابه «رحلتي الديبلوماسية عبر البلد المغلق»، وزعم أنه هو الذي قاد بعثة أفغانستان. كان هزء أقرباء الزوجة من هانتيج، الذي زوّر دوره الحقيقي في أفغانستان، اتهاما قاسيا إلى أبعد حد في العالم

22. انظر الارشيف البروسي ـ أرشيف وزارة الخارجية، ر 35820، ص 38.

البروسي المليء بمفاهيم الشرف ـ كانت زوجة هانتيج من أسرة نبلاء بروسية ـ[23].

في 31 آذار عام 1927 حكى فون هانتيج إلى نيدرماير بأدب بارد عن الحادثة، وطلب إليه تصحيح روايته بصورة علنية، وإلا فإنه سيقيم دعوى لتوضيح ما حدث حقا. تلقى نيدرماير الرسالة بطريق فرعية وهو في موسكو، ورد عليها يوم 12 نيسان 1927. لم تتناقض روايتا المتخاصمين، فقد كتب هانتيج في رسالة تاريخها 31 آذار 1927 ما يلي: «كما تعلمون جيدا، لم يكن هناك بعثة ألمانية إلى أفغانستان كنتم أنتم رئيسها انضم إليها جميع الألمان المقيمين في أفغانستان وائتمروا بأمركم، بل كان هناك بعثة عسكرية أرسلتها برلين في أيلول عام 1914، صرتم فيما بعد قائدها، وبعثة ديبلوماسية سافرت مطلع عام 1915 أسندت إلي إدارتها».

فرّق نيدرماير في رده بين قيادته العسكرية للمشروع وبين الموقع المستقل لهانتيج لدى تنفيذ مهمته الديبلوماسية: «لم تقم المراجع الوظيفية المسؤولة بتنظيم واضح لعلاقة مهمتكم ببعثتي، الأمر الذي كان ضروريا عند إرسالكم. أما علاقتي الأولى ببعثتكم، فقد نشأت بسبب طلب برقي بدعمكم وأنتم في الطريق إلى أفغانستان، الذي ورد من السفارة في اسطنبول. وقد أجبرتني الظروف الخاصة في فارس آنذاك على المطالبة الفورية بتحديد علاقة البعثتين بعضهما ببعض. وهكذا تقدم المبعوث الألماني في طهران بناء على رجاء مني بتقديم طلب إلى رؤسائه كما تقدمت أنا نفسي بطلب إلى رؤسائي يضعكم تحت قيادتي، لمصلحة عمل موحد في فارس وأفغانستان، وهذا ما تمت الموافقة عليه برقيا في شكل يجعلكم تابعين لي عسكريا مع احتفاظكم

23. توجد رسائل هانتيج ونيدرماير المتبادلة، وكذلك رسائل نيدرماير مع محاميه والجنرال فون لوسوف ورئاسة اتحاد ضباط فوج المدفعية الميدانية البافاري العاشر في تركة فون هانتيج في معهد أفغانستان السويسري، المكتبة الأفغانية في بوبندورف.

بحرية تنفيذ مهامكم الديبلوماسية الخاصة. إن الوثائق التي تؤكد صحة ما أقوله موجودة لدي».

تغطي المراسلات الرسمية عرض نيدرماير للوقائع، وإن كان أمرا مشكوكا فيه إن كان هانتيج قد رأى إبان إقامته القصيرة خلال شهر حزيران عام 1915 في طهران برقية يوم 8 أيار 1915، التي يضعه فيها سفير ألمانيا في اسطنبول فون فانجنهايم تحت إمرة نيدرماير. بيد أن المقطع الأخير من رسالة نيدرماير المسجلة بتاريخ 12 نيسان 1927 يعلمنا أن صراع المتنافسين سيصير شديدا: «أما فيما يخص التهديد بتصحيح روايتي بكل شكل وعلى أوسع نطاق عام ممكن، فإنني أحذركم بإلحاح ولمصلحتكم الخاصة من أنني ساعرف كيف أواجهكم بكل ما لدي من وسائل وبغض النظر عن التضحيات الشخصية والمالية التي قد تترتب على ذلك». فيما بعد، أقلع نيدرماير عن مراسلة فون هانتيج إلا عبر محاميه.

تفاقم الأمر وازداد سوءا باضطراد. كانت إجراءات طلاق هانتيج مستمرة، بينما كان نيدرماير، الذي يواصل مهمته السرية في موسكو، يرى من واجبه تحاشي أية فضيحة علنية ويرفض أن يرى سببا للتجاوب مع مطالب منافسه. لذا أبلغ محامي نيدرماير هانتيج في 11 تشرين الأول عام 1927 أن موكله مستعد من حيث المبدأ للإدلاء بشهادته تحت القسم في قضية الطلاق. لكن الشهادة لا يجوز أن تكون في برلين: «حسب وضع الأمور، يعتقد موكلي أن أفضل حل هو أن تطلبوا أنتم من السفارة الألمانية في موسكو التحقيق معه، حيث سيتمكن السيد الدكتور نيدرماير من الإجابة بالتفصيل على جميع الأسئلة التي تودون طرحها عليه». لم يوافق فون هانتيج على ذلك، وأصر على إدلاء نيدرماير بشهادته في أسرع وقت ممكن وفي حضوره، فأبلغه محامي الأخير يوم 17 تشرين الأول 1927 أن موكله: «لا يجد أي دافع لإبداء أية استجابة خاصة حيالكم، بسبب طريقة تعاملكم إلى الآن مع القضية».

10. جماعة متنوعة: أعضاء بعثة أفغانستان الألمانية قبل وصول أوسكار نيدرماير (إلى يمين الطاولة: فيلهلم فاسموس).

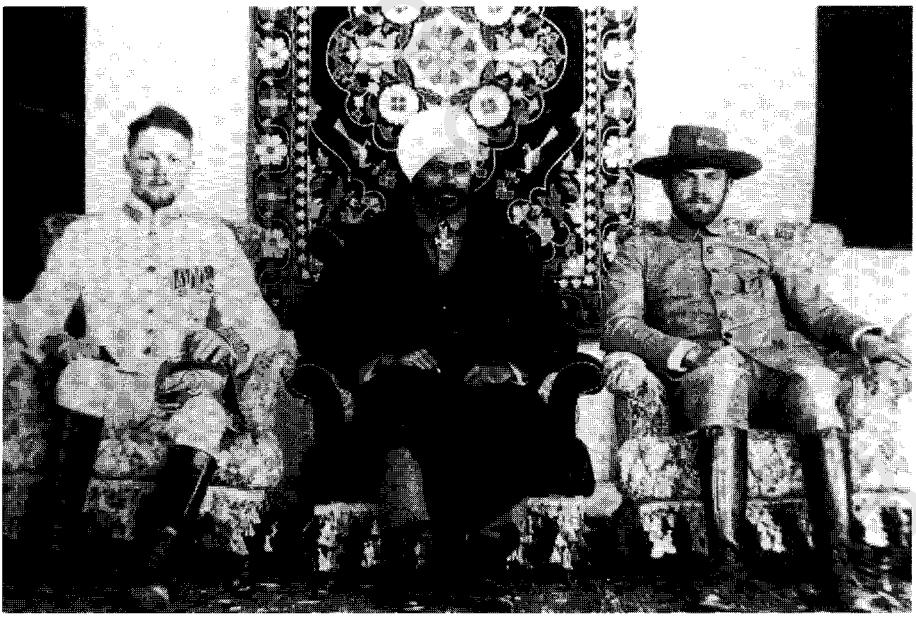

11. خصوم في كابول: فيرنر أوتو فون هانتيج، كومار مندرا براتاب، أوسكار نيدرماير (من اليسار إلى اليمين).

12. جونتر فوجت، أوسكار نيدرماير، كورت فاجنر (من اليسار إلى اليمين) وفي خلفية الصورة ممتطياً حصانه: فيرنر أوتو فون هانتيج.

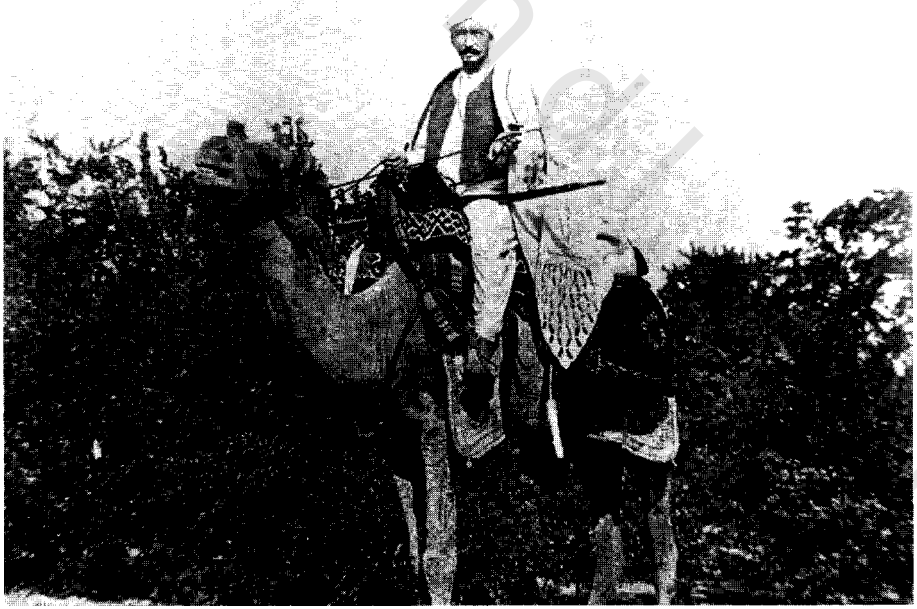

13. رجل الارتباط كورت فاجنر في حيرات عام 1917.

14. فيلهلم فاسموس: القنصل وقائد حرب الغوار في جنوب فارس.

15. بعد ليلة سمر: أوسكار نيدرماير (جالساً) وفريتز نيدرماير صبيحة رحلتهما من القسطنطينية يوم 5 كانون الأول عام 1914.

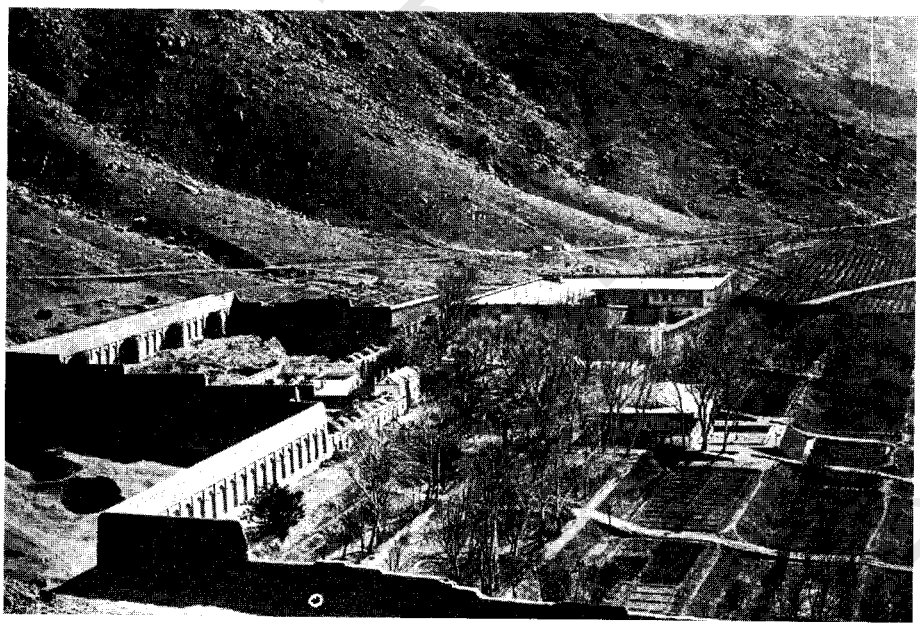

16. جنة في الجبال: حديقة بابور في كابول، مقر بعثة أفغانستان الألمانية شتاء عام 1915/1916. يتم الآن تجديد الموقع بمعونة تقدمها حكومة ألمانيا الاتحادية.

17. الأمير حبيب الله مع ولديه عناية الله (إلى اليسار) وآمان الله.

اختار هانتيج مخرجا في هذا الوضع العصيب دفع الشجار إلى ذروته. بما أن المسألة تعلقت بقضية تتصل بزواجه، فإنه لم يكن هناك بعد غير احتمالين: إما المبارزة أو دعوى قدح وذم. بالنظر إلى الاتهامات التي كالها كل طرف إلى الآخر، ربما كانت الدعوة إلى المبارزة أفضل مخرج بالنسبة إليهما كليهما، غير أن هانتيج قرر رفع دعوى ضد نيدرماير أمام محكمة الشرف في فوجه، بعد ان استعلم في آذار 1928 من الجنرال فون لوسوف، الذي كان يعرفه من أيام اسطنبول، عن فوج نيدرماير القديم ولوائح محكمة الشرف المطبقة فيه.

قدم لوسوف المعلومات المطلوبة إلى هانتيج في 30 آذار 1928، قبل فترة قصيرة من زيارة أمان الله إلى برلين، ونصحه في الوقت نفسه بإلحاح أن يبدأ إجراءات محاكمة شرفية ضده: «إن مدونات المحاكم الشرفية التابعة لجمعيات عامة، المقتبسة في جوهرها من لوائح محاكم الشرف السابقة في الجيش، هي، كما يعلم الجميع، مؤسسات في طريق التلاشي وذات سلطة مشروطة، إذا لم نقل إنها تكاد تكون وهمية». لم يمنع هذا هانتيج من مواصلة مسعاه، فوجه يوم 3 نيسان عام 1928 في كتاب رفعه إلى رئيس جمعية ضباط فوج المدفعية الميدانية العاشر تهمة رسمية إلى نيدرماير هي أنه انتهك شرف أحد الضباط، وطلب قرار لجنة شرف الفوج باعتبارها «الجهة القضائية الأخيرة صاحبة الاختصاص».

ليس في الوثائق ما يؤكد أن إجراءات التقاضي بدأت حقا ضد نيدرماير، وما هي النتيجة التي أفضت إليها. لكن حقيقة أن هانتيج اتهم نيدرماير بانتهاك شرفه على مرأى ومسمع رفاقه في الفوج، كانت تكفي بحد ذاتها لإطلاق الألسنة وإثارة البلبلة في أمسيات الزملاء وفي كازينوهات جيش الرايش. وثمة شيء يبقى دوما من أي اتهام، حتى إن كان غير صحيح. كان هانتيج في وضع شخصي وأُسري صعب بسبب دعوى الطلاق، وقد أساء بطلبه محاكمة شرف إلى خصمه ونفسه.

صحفيون وجواسيس

كانت عداوة فون هانتيج، وعلاقته الملتبسة مع السفارة الألمانية في موسكو، وصلته الرفاقية مع كارل هاوسهوفر، محطات مهمة في طريق حياة نيدرماير الخاص. لكنه كان لأنشطته السرية في جيش الرايش نتائج سياسية تتخطى حياته الشخصية. وقد كان الديبلوماسيون بعيدو النظر في وزارة الخارجية، وخاصة منهم سكرتير الدولة فون شوبيرت والسفير جراف بروكدورف ـ رانتساو على حق حين قالوا إن جيران ألمانيا يراقبون بعين الارتياب التعاون العسكري السري، ويخشون تفاهما ألمانيا / سوفياتيا، ولا يثقون بنوايا حكومة الرايش وشتريزيمان الذكي.

رجعت ريبة القوى الغربية إلى الحرب العالمية الاولى، حين خال إدجار سيمسون، مبعوث الرئيس الأميركي ويلسون الخاص، أنه اكتشف مؤامرة خطيرة مطلع عام 1918، وقدم أدلة إلى حكومته تؤكد أن جهات حكومية ألمانية قدمت دعما ماليا إلى لينين، في حين تم إعلام الرأي العام العالمي بالتفصيل بهذه الأدلة، قبل أن «يفضح» في النهاية طبعها في كتاب صدر عام 1919 باللغة الألمانية في سويسرا «المؤامرة الألمانية البلشفية»[24].

لا مراء في أنه وصلت حقا خلال الحرب العالمية الأولى مبالغ تقدر بالملايين من صناديق وزارة الخارجية والأركان العامة إلى جيوب الثوريين الروس، الذين عملوا آنذاك بصورة من الصور لصالح الجيوستراتيجيا الألمانية. وليس سرا أن لينين ورفاقه أنهوا في بريست ليتوفسك حرب الجبهتين التي كان يخوضها الرايش الألماني، وبثوا روح التمرد في آسيا عبر محاولات تثويرها بلشفيا، فلا عجب أن رأى رأسماليو وول ستريت الأميركيون ذوو التفكير الكوكبي، ومثقفو بريطانيا الليبراليون في بلومسبوري

24. انظر ايضا جيرهارد شيسر / يوخن ترتوبتمان: الروليت الروسي. المال الألماني وثورة أكتوبر. برلين 1998.

وامبرياليوها المحافظون في وايتهول في صلة ألمانية / روسية تقوم تحت علامات ثورية خطرا أشد في المدى البعيد من السلام القصير وغير المؤكد الذي عقد عام 1918 بين الرايش القيصري والثورة.

راقب رجال الاستخبارات البريطانيون باهتمام خاص تعاون العسكريين الألمان مع مهاجري الأتراك الفتيان وثوريي البلاشفة ـ اليهود[25]. وقوّم الخبراء البريطانيون وخاصة منهم الدوائر الاستخبارية في اسطنبول المسؤولة عن مراقبة الحركات الداعية إلى وحدة العالم الإسلامي والبلشفية، بصورة صحيحة الصلات السرية بين أنور باشا والبلاشفة والألمان. وذهب تقويمهم حول مصالح المشاركين الجيوستراتيجية وتصوراتهم عن أهدافهم في الاتجاه الصحيح، وإن كانوا قد افتقروا إلى التفاصيل والبراهين الملموسة.

لم يقتصر الاهتمام بالعلاقات الألمانية / السوفياتية على المبعوثين الأميركيين الخاصين ولجان الاستخبارات البريطانية، بل طال القلق دولا أوروبية أخرى، وقد أبلغت المفوضية الألمانية في استوكهولم مطلع عام 1924 بصفة «سرية» عن محادثة مع الملحق البحري الإيطالي[26]، الذي عبر خلال زيارة إلى المفوضية عن اعتقاده أن ألمانيا تعد نفسها لحرب جديدة، وأن ذلك يبدو واضحا من تدريب القادة المساعدين ومن تحضيرات التعبئة العامة السريعة. وأضاف أن المائة ألف رجل المنضوين في جيش الرايش، ليسوا غير مجرد نواة للجيش الكبير المقبل. أخيرا، وصل الإيطالي إلى موضوع حديثه الحقيقي، وهو أن سلاح جيش المستقبل الثقيل يصنع في

25. انظر ريتشارد بوبلويل: الاستخبارات والدفاع الامبراطوري. الاسخبارات البريطانية والدفاع عن امبراطورية الهند 1904 ـ 1924. لندن 1995.

26. سبب التعاون العسكري السري بين ألمانيا وروسيا متاعب كثيرة لساسة جمهورية فايمار، وأثار ريبة الديبلوماسية الغربية فيهم. وقد أشار وزير خارجية ألمانيا الحالي جوزيف (يوشكا) فيشر إلى هذا في خطبة ألقاها يوم 26 كانون الثاني عام 2000 أمام الأكاديمية الإنجيلية في برلين. راجع: الأرشيف البروسي وأرشيف وزارة الخارجية تحت رقم ر29286، ص 56/57.

روسيا. وعلى رغم التأكيدات المعاكسة، فإنه لم يتخل عن تصوره حول وجود اتفاقات عسكرية مع روسيا السوفييتية، وأن كانت ليست بالضرورة رسمية أو مكتوبة. إلى هذا، عبر الإيطالي عن اعتقاده أن ألمانيا تريد إنتاج واختبار نوع جديد من الغاز السام هناك.

اهتم الملحقون العسكريون الأجانب ورجال الاستخبارات بطريقة منظمة بالعلاقات الألمانية / السوفييتية السرية، مع أن عملياتها لم تحمل جميعها قسمات الـ«الشفايكياده»، العملية التشيكية، التي أبلغت المفوضية الألمانية في براغ عنها «بصورة سرية» يوم 25 تشرين الثاني عام 1930، وملخصها أن رجلا اسمه فرانتسيك بوكورني سافر إلى موسكو بتكليف من حكومة تشيكوسلوفاكيا وتأييد فرنسي وبولوني محتمل، لمتابعة تفاصيل التعاون الألماني / السوفياتي السري. كان التشيكي، الذي بلغ السادسة والثلاثين على وجه التقريب، أشقرا، بلا لحية، وبدينا خدم كمدفعي في الجيش الملكي / القيصري، وتحدث الألمانية بطلاقة، عمل آخر ما عمل مدرس مادة قياس الصوت في المعهد التقني ـ التشيكي، حيث شارك أيضا في التنصت على الاتصالات البرقية الديبلوماسية وتقويمها.

تقاعد بوكورني من عمله عام 1929 «لأسباب صحية» براتب كامل، وعمل بمعرفة المفوضية الألمانية في شعبة الجاسوسية الخارجية التابعة للأركان التشيكية العامة، مع أنه كان يقدم نفسه في بطاقته الشخصية ورسائله كـ «تاجر» أو كـ «مستورد ومصدر». وقد سافر مرتين إلى ألمانيا تحت هذه الأكذوبة، ثم واصل استقصاءاته في موسكو وعرض على الألمان والسوفييت تجهيزات مدفعية وبراءات اختراعات خاصة، لإغرائهم بالتعامل معه.

حين عاد «التاجر» إلى براغ عبر السويد والنرويج وهولندا، كانت لديه انطباعات عامة وليس أدلة قاطعة، كما قال أحد عملاء المفوضية الألمانية في براج. من هذه الانطباعات واحد زعم إن «الصناعة والجيش في الاتحاد

السوفييتي هما تحت الإدارة الكاملة للخبراء الألمان». فيما عدا هذا الدعاء، لم يكن لدى بوكورني الكثير مما يستطيع تقديمه، رغم أن عضوا في السفارة الألمانية أعطاه عضوية النادي الألماني في موسكو. لم يفد التشيكي أيضا ادعاؤه أنه شيوعي، مع أنه كان ينتسب في الواقع إلى الحزب الفاشي التشيكي. لهذه الأسباب، أبرقت المفوضية الألمانية في براغ تطمئن برلين.

هذا الفاصل البائس لم يحجب حقيقة أن جيران ألمانيا الأوروبيين كانوا مطلعين بصورة مدهشة على التعاون العسكري السري، فقد وجدت الاستخبارات البولونية وعبرها الفرنسية منذ عام 1930 على أبعد تقدير مدخلا إلى وثائق فائقة السرية خاصة بمدرسة الدبابات الألمانية في قازان، بفضل موظفة في وزارة جيش الرايش اسمها ريناته ناتسمر.

هذه المعرفة السرية لانتهاك نصوص معاهدة فرساي لم تصل إلى الرأي العام، لأنه لو كانت هناك اتهامات علنية، ولو بذلت مساعي رسمية بصدد ما كان يجري، لكان من الضروري تقديم أدلة يعني الكشف عنها التضحية بمصادر معلومات على أرفع قدر من السرية. وقد فضل البريطانيون بصورة خاصة تحاشي انفجار ديبلوماسي / سياسي معلن، وآثروا العمل غير المباشر عبر وسائل الإعلام، التي يمكن نقل أخبار إلى الرأي العام بواسطتها، دون أن تكون هناك حاجة إلى الكشف علنا عن الجهات الحكومية والمصادر الاستخبارية المشاركة.

عندما تقرر منح وزير الخارجية الألماني جوستاف شتريزيمان جائزة نوبل للسلام في أوسلو يوم العاشر من كانون الأول عام 1926، وضعت أنباء صحفية إصبعها على جرح سياسته. كان الوزير قد التقى قبل سبعة أيام من الحدث الكبير زميله السوفييتي تشتشيرين، وفي يوم 3 كانون الأول عام 1926 ذاته، بدأت «المانشستر جارديان» سلسلة مقالات حول تصدير الذخائر من روسيا إلى ألمانيا، ورحلات الضباط الألمان إلى الاتحاد السوفييتي. فهل

نشرت المقالات لأن البريطانيين كانوا يعلمون أنه سيتم توقيع الاتفاق على إقامة مدرسة المدرعات الألمانية في قازان يوم التاسع من كانون الأول عام 1926، عشية منح الوزير الجائزة؟.

أظهر تقرير مراسل «المانشستر جارديان» في 6 كانون الأول عام 1926 من برلين أن البريطانيين كان لديهم حجم ضخم من الوثائق الألمانية حول «تطور العلاقات بين الإقطاعيين والرايش بخصوص التعاون مع روسيا». واستنتجت الجريدة البريطانية وجود اتفاقات عسكرية بين ألمانيا والاتحاد السوفييتي «كنوع من الحلف العسكري». وارتبط بما نشرته من وثائق طلب موجه إلى حكومة الرايش بقطع الخيوط العسكرية بصورة نهائية مع موسكو. كانت الرسالة إلى حامل جائزة نوبل الطازج شتريزيمان واضحة وذات معنى واحد: «إنه لأمر سهل الآن بالنسبة إلى الحكومة الألمانية أن تتخلى مرة واحدة وإلى الأبد عن الأنشطة السرية غير المسؤولة، التي يقوم بها مكتب الحرب الخاص».

تظهر شروح إضافية تحت عنوان «ضباط يزورون روسيا» كم كان دقيقا اطلاع الجريدة على أنشطة سيكت ونيدرماير والمجموعة الخاصة «ر» الكيميائية، التي دامت سنوات كثيرة، فقد وصفت في البداية المحاولة الفاشلة لإقامة مصنع طائرات في موسكو، ثم جهود إنشاء مصنع في روسيا لإنتاج أسلحة دمار شامل، وكيف كان ضباط الجيش المعنيون يسافرون إلى هناك بوثائق مزورة وأسماء سرية. وأكدت أخيرا أن فون سيكت أقام علاقات جيدة مع عسكريين سوفييت سامين، وكان على الأرجح مطلعا أفضل اطلاع خلال فترة خدمته على ما كان يحدث. أما حامل جائزة نوبل شتريزيمان فقد مد جسرا ذهبياً إليه، مع أنه في رأي «المانشستر جارديان» ليس مسؤولا عن الاتفاقات السرية، لكونها تتناقض مع سياسته التي لا يمكن اعتبارها ودية حيال روسيا. وختمت الصحيفة قائلة: على الحكومة الألمانية تنظيف بيتها في أسرع وقت.

لم يحدث شيء في برلين باستثناء بعض الأنشطة البرلمانية التظاهرية، كقيام النائب الديموقراطي الاجتماعي فيليب شايدمان يوم 16 كانون الأول 1926 بإدانة التعاون بصورة علنية مع الجيش الأحمر في خطبة ألقاها داخل جدران برلمان الرايش، وزعم سياسي الوسط ومستشار الرايش فيلهلم ماركس في رده أن الأحداث التي يذكرها النائب قديمة جدا، تمت، إن كانت قد تمت أصلا، في شروط سياسية خارجية مختلفة كل الاختلاف، قبل عقد اتفاقية لوكارنو، وإن التحقيقات أدت إلى كشف تهافت عدد كبير من المزاعم التي أوردها النائب.

لعب مراسل «المانشستر جارديان» وزوجته دورا ملتبسا في الظاهر يقع في المنطقة الرمادية بين الصحافة والنشاط الاستخباري. وأوحيا في الفترة التالية إلى جهات حكومية ألمانية عن عمد أنهما يعرفان معلومات أكثر من تلك التي أورداها في تحقيقاتهما. لذلك كتب جوستاف شتروم، المستشار الشاب في مكتب سكرتير الدولة بوزارة الخارجية، الذي كان مسؤولا عن البريد السري للإدارة، ملاحظة «جد سرية» يوم 22 تموز عام 1927 حول زوجة المراسل، التي روت له على هامش لقاء اجتماعي عن زوجة عقيد ألماني يقود منذ ثلاثة أعوام مدرسة طيارين ألمانية في موسكو، وأضافت أنها جعلت الألمانية تتحدث إليها بتفصيل عن نشاط زوجها السري والمهم. فهل صحيح أن السيدة ليثمان ـ تومسن، الطيار ورئيس نيدرماير في موسكو، ثرثرت بما تعرف خلال الحفلات الاجتماعية؟.

ظهرت في الصحافة الدولية مرارا وتكرارا تقارير عن التعاون السري الألماني / الروسي. كانت انشطة نيدرماير معروفة ضمن دائرة الديبلوماسيين في موسكو، وتحدثت سيدات المجتمع في صالونات برلين عن مهمته القومية، وأخبر رجال أعمال ألمان عن لقاءات موسكوفية مع «لورانس الألماني». فهل نستغرب أن يقوم مراقب بريطاني يقظ باستخلاص نتائج بعيدة المدى من هذه المشاهدات المتفرقة؟.

كان عنوان الكتاب الذي نشر عام 1932 هو «وجه ألمانيا الروسي»[27]. اهتم الصحافي البريطاني سيسيل ميليفيل بعلاقات ألمانيا السرية مع روسيا، عندما كان عام 1927 مراسلا ديبلوماسيا لجريدة «ويستمينستر جازيت» الليبرالية، ثم مراسلا خاصا لدى عصبة الامم في جنيف. وبدأ يجمع موادا حولها منذ عام 1929، خلال رحلات قام بها إلى برلين وأوروبا الشرقية. حين تحول سقوط طالب طيار ألماني في روسيا صيف عام 1930 ثم انتحار زوجته اليائسة إلى عناوين في الصحف، صمم ميليفيل على نشر تحقيقاته في كتاب، لتحذير الرأي العام العالمي من الاستعدادات الروسية / الألمانية للحرب، ولاعتقاده أن ضباطا ألمان يعملون بطريقة عمدية وسرية من أجل بناء آلة حرب كبيرة وحديثة في روسيا، سيعيدون بمعونتها النظر في نتائج الحرب العالمية الاولى. يبدو الضباط الألمان في نظر مليفيل كأخلاف معاصرين لفرانكشتاين، ينهمكون في خلق غيلان ستقود إلى تدمير ألمانيا وروسيا الذاتي.

أرجع ميليفيل بذكاء وبعد نظر تاريخ الأسس التي قام عليها التعاون الألماني / الروسي إلى عام 1918/ 1919، دون أن يعرف على كل حال دور الجسر الذي قام به الأتراك الفتيان المهاجرون. بالمقابل، أشار بحق إلى تجارب ألمانيا في استراتيجيات إشاعة الفوضى، وبينها مثلا «الكتيبة الهنجارية» التي أسسها بسمارك عام 1866، وتهديده بإطلاق ثورة جمهورية في إيطاليا عام 1870، ورحلة لينين عبر ألمانيا عام 1917.

لكن ميليفيل عرف قبل كل شيء دور سيكت الحاسم. لم يكن أعظم عسكريي جمهورية فايمار صاحب رؤيا وبعد نظر وحس سياسي خارقين، وخبيرا عسكريا من أول طراز وحسب، بل كان أيضا مثقفا في البذة

27. سيسيل ميليفيل: وجه ألمانيا الروسي. لندن 1932. وقد أشار نيدرماير إليه مرات كثيرة في محاضراته.

العسكرية، وفيلسوفا سياسيا. وكان في نظر ميليفيل الرجل الذي عرف كيف يستخدم معاهدة فرساي لصالح ألمانيا إلى أقصى مدى ممكن، وجعل من المائة ألف جندي محترف في جيش الرايش كوادر مقبلة لقوات مسلحة كبيرة، ما لبثت أن ظهرت خلال فترة قصيرة كجيش حسن التدريب حديث التسليح.

أنهى ميليفيل كتابه بنظرة ختامية: «بينما كنت أضع هذا الكتاب، نما الاهتمام بنجم آدولف هتلر، قائد النازية الصاعد. وأنا أعرف تماما أن موسكو تنظر بتفاؤل كبير إلى نظام هتلر، وأن ستالين الواقعي لن يجد صعوبة في التعاون مع ألمانيا الهتلرية». لكن التاريخ لم يسر في خط مستقيم وببساطة، كما أعتقد الكاتب.

obeikandl.com